بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 03 فبراير 2016

مصادر القوة الإقناعيّة في المثال المختزع
(مثال البوم والغربان أنموذجا)

عبد اللّه البهلول
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

الملخص:

ـ تحديد مشكلة البحث.

المثال نوعان: تاريخي واقعي يحكي قصة الإنسان، ومخترع غالبا ما يُستعار له قناع الحيوان. ويسعى البحث إلى الجواب على السؤال التالي: فيم تكمن بلاغة الأمثال المخترعة؟ وما مصدر قوتها التأثرية؟

ـ الأسئلة البحثية الفرعية.

قوة الأمثال المخترعة هل هي عامة مشتركة آتية من جهة ما تتيحه من حرية التخيل والإنشاء والإبداع ؟ من جهة اعتماد **مبدأ الطرق الخطابية المناسبة** لفهم العوامّ؟ من جهة استخدام الرمز الحيواني وبناء النص على نحو يستنشط الكفاية التأويلية لدى المتلقي بدعوته إلى ملء الفراغ وفكّ مغالق القول وتجاوز ظاهر المنطوق إلى باطن المفهوم؟

أم هل تتأتى قوة المثال المخترع من جهة **الأجناس الأدبيّة** والخطابية التي تستقدمه وتعوّل عليه، **والاستراتيجيات السردية** التي بها تُعرض الفكرة، **والأساليب التعبيرية** والوسائل الفنية التي يتمّ بها تسريد المثال وتطويره؟

ـ الخطوط العامة لمنهجية البحث.

يسعى هذا البحث إلى تدبّر الجواب على سؤال مصادر القوة التاثيرية في المثال المخترع بالتركيز على ثلاثة مستويات نصيّة إجرائيّة في ضوئها تتحدّد قيمة الأمثال وتُرصد قوّتها التأثيرية:

- مستوى الجنس الأدبيّ المتخيّر وهو بمنزلة المقام والإطار الأسلوبي العام الذي يتنزل فيه المثال، إذ ليس المثال المنزّل في سياق المناظرة والجدل كالمثال المنزّل في سياق المذاكرة والمشاورة والمساجلة والمسامرة وغيرها من أجناس القول وفنونه.

- مستوى التسريد وقوامه النظر في استراتيجيات السارد في عرض المادة الحدثية وتوزيعها.

- مستوى تطوير السّرد وأساسه النظر في مختلف التقنيات التي أتاحت للكلام أن يُبسط، وللنصّ أن يتوسع، وللمثال أن يطول ويتشعّب.

ـ مخطّط المحاور التي سيتضمّنها البحث.

يتضمن البحث مقدمة وأربعة محاور وخاتمة: محور أول مداره على تأثير الجنس الأدبيّ في تشكيل المثال وإذكاء قوته التأثيرية، محور ثان مداره على فنون تسريد المثال ومحور ثالث لدراسة كيفيات تطوير المثال، توليدا وتوزيعا، ومزاوجة بين السرد والتعليق، ومحور رابع تأليفي يستخلص أهم خصائص المثل في باب البوم والغربان من كليلة ودمنة القائم أساسا على مبدأ الإخفاء في سياسة الأعداء.

ينتمي المثال، في الخطابة الأرسطيّة[1]، إلى جنس الدلائل المعدّة و**الحجج الصناعية** التي يُدعى الخطيب إلى إيجادها واختراعها ليُكسب مخاطبَه بالقول ما يوجب التصديق والاقتناع. وبها يكون الإثبات والإبطال. ويقابل هذا الجنسَ جنسٌ ثانٍ من الدلائل الجاهزة والحجج المستقلّة عن صناعة الخطابة (preuves indépendantes de l'art) وهي خمسة أنواع: القوانين (Lois) والشهود (Témoins) والعقود أو الاتفاقات (Conventions) والاعتراف المنتزع تحت التعذيب (Torture) والقسم (Serment)[2]

والحجج الصناعية (أو الحيل الإعدادية) ثلاثة أنواع: نوع قائم على إثبات فضائل القائل (Pathos) وبيان أنّه أهل للثقة جدير بالقبول والإصغاء، ونوع قائم على تحريك العواطف واستثارة الأهواء وإكساب السامع بالقول انفعالا ما يوجب التصديق (Pathos) لكون الأحكام تختلف باختلاف حالات النفس والأهواء المستثارة، فالحكم في حال الفرح غير الحكم في حال الحزن، وقرار المرء في حال السّخط غير قراره في حال الرضا. أمّا النّوع الثّالث -وهو عمدة هذه الصناعة وعمودها- فهو حمل الآخر على الاقتناع والتصديق بالكلام المقنع(Logos) (أو ما يُظنّ أنّه مقنع)، إمّا بالضمير (Enthymème) وإمّا بالمثال (exemple'L). وإذا كان مسار الاستدلال قائما في القياس (Syllogisme) على إخراج جزئي من كلي، وقائما في الاستقراء (Induction) على إخراج كلي من جزئي، فإنّه في المثال قائم على إخراج الجزئي الأخفى من الجزئي الأعرف، بعقد علاقة بين الممثّل (أ-ب) والممثّل به (ج-د) أو بين الموضوع (thème) والمحمول (rhème) يتمّ بها قبول العنصر الأوّل (المجهول والمشكوك فيه) اعتمادا على العنصر الثاني (المعلوم والمتفق عليه) لوجه شبه مشترك بينهما، وهو ما يعني أنّ قوّة المثال ليست استنتاجية ملزمة بحكم ترابط عناصرها واتصال مقدماتها بنتائجها، بل هي محتملة ممكنة، كلّما كان المشترك بينهما أقرب وأوضح كان أدعى إلى الإقناع لانطباق الحال على الحال. ومن هذه الجهة تكون خطورة الأمثال.

والمثال نوعان: مثال **تاريخي** يستمدّ قوّته من كثرة شيوعه واستخدامه وروايته الأمور التي حدثت من قبل واعتماده على الحقيقة اعتمادا يمنحه التصديق. **ومثال مخترع** يوجده الخطيب لاسيما عندما تعوزه الأمثال التاريخية ويعسر عليه في حاضره العثور على أمور مشابهة في الماضي. والنوعان مختلفان قوّة وتأثيرا، متفاوتان قدرة على نقل المخاطَب من وضع أوّل في التفكير (Stade de pensée 1) إلى وضع ثان (Stade de pensée 2) تتغيرّ فيه الاقتناعات والمعتقدات ولا يُكتفى فيه بالتّصديق بل توصل فيه الغاية التصديقية بالغاية العمليّة، وتتغير أنماط السلوك مثلما يتغيّر التفكير. ومظاهر هذا التأثير تُدرك في النصّ

1 Aristote, ***Rhétorique***, Introduction de Michel Meyer, traduction de Charles-Emile Ruelle, Revue par Patricia Vanhemelryck, Commentaires de Benoit Timmermans, Librairie Générale Française, 1991. Livre II chapitre XX, pp: 251-254 (Sur les exemples, leurs variétés, leur emploi, leur opportunité)

- Aristote, ***Rhétorique***, introduction, traduction, notes bibliographie et index par Pierre Chiron, Traduit avec le concours du centre national du livre, Flammarion, 2007
- Aristotle, With an English translation: ***The "Art" of Rhetoric***, by John Henry Freese, London: William Heinemann, New York: G.P. Putnam's Sons
- ***La Rhétorique*** d'Aristote, Traduite en Français avec le texte en regard et suivie de notes philologiques et littéraires par Norbert Bonafous, Paris, A. Durand, libraire, 1856.

2 Aristote, ***Rhétorique***, Op. cit, livre premier ; Chapitre XV, p 170-180

استنادا إلى قرائن تؤكد التطابق التام بين الأعمال المقصودة بالقول (Illocutoires Actes) والأعمال المتحققة بالقول(Perlocutoires Actes)

وللمثال المخترع - لاسيّما الخرافي - قوّة تأثيريّة موصولة بثلاثة أشياء: **الاختراع والتناسب والتأثير**. وبيان ذلك أنّ المثال الخرافي من ضروب الحجج التي يوجدها الخطيب (والكاتب) وإن لم تكن موجودة في الأصل، ينشئها إنشاء في ضوء المقاصد التأثيرية التي يروم تحقيقها، ولذلك تسنده الأمثال الخرافية عندما تعوزه الأمثال التاريخية ويعسر عليه في حاضره العثور على أمور مشابهة في الماضي. وهذا المبدأ فيه نصيب كبير من حرية الاختيار التي تسمح للمثال بأن يكون حيّا متحرّكا ويكون مجال الشواهد الإبداعيّة مفتوحا. ولمّا كانت الأمثال محكومة بمقاصد صاحبها منها وكان ضارب الأمثال الخرافيّة قادرا على دعم الفكرة الواحدة ودحضها، حصل الاقتناع المبدئيّ بأنّ ضارب المثال مدفوع بالمنفعة، غير مؤتمن على الحقيقة لأنّه يضرب المثل ونقيضه.أمّا المبدأ الثاني الذي يكسب المثال المخترع قوة تأثيرية فهو **مبدأ اعتماد الطرق الخطابية المناسبة**، فالمثال في الخطابة بمنزلة الاستقراء في الجدل، مقترن بالمعارف الأولى الآتية عن طريق الحواسّ. وفي طباع الإنسان الأنس بالمحسوس والارتقاء منها إلى غيرها. وإذا استغرب شيئا معقولا طلب أمثالا من الحسّ فإذا الغريب أليف، وإذا العلم المستفاد من جهة الحسّ مستحكم في النفوس ومتقدّم إذ ليس الخبر كالمعاينة ولا الظّنّ كاليقين. فهو (أمسّ بها رحما وأقوى لديها ذمما وأقدم لها صحبة وآكد عندها حرمة) [3] ولذلك يُتوسّل بالمألوف إلى الغريب، ويُقبل الحبيب الثاني بشفاعة الحبيب الأوّل. وعلى هذا الأساس، عندما يُستعمل المثال في مجال الحجاج ينتج إقناعا أعذب، ويكون قوّة مشرقة تثير اللذة

3 الجرجاني، دلائل الإعجاز، علق عليه السيد محمد رشيد رضا، طبعة جديدة منقحة ومصححة، دار المعرفة بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1994 ص: 158. ينظر كذلك: عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان دار إحياء العلوم بيروت ط1 س 1992 (من فوائد التمثيل ص 162، 164، 166، 170، 181

الكامنة في كلّ تشبيه[4]. ولذلك هو محبوب لدى العوامّ.[5] وهذا المبدأ موصول في الأصل بجنس القول الذي يستدعي المثال ويتطلبه، ذلك أنّ أرسطو، عندما بحث في أنواع الحجج المناسبة للجنس الخطابي، رأى أنّ المثال أجدر به أن يكون في الجنس المشاوري (délibératif Genre) والمشاورة تكون في الأمور العظام الممكنة في المستقبل يُستفاد فيها من الماضي لمعرفة مصائر الأمور التي يستصوب اختيارها أو يستحسن اجتنابها ويستوجب تركها.[6] ويكتسب المثال المخترع تأثيرا آتيا من جهة قدرته على إثارة **تفاعل المتلقين وإن بدا التفاعل متفاوتا** بحسب أنواع المتلقين وكفاءاتهم. فالمثال المخترع لاسيما الخرافي يستنشط الكفاءة التأويلية في الإنسان ويدعوه بحكم علاقة المماثلة إلى تدبّر وضع الإنسان انطلاقا من حكاية الحيوان، وعليه عندئذ ملء الفراغ وفكّ مغالق القول وكشف الأقنعة وتبيّن مدلولات الرّموز وتجاوز ظاهر المنطوق إلى باطن المفهوم. وفي تجربة البحث عن المعنى يكتشف المتلقي المجهول انطلاقا من المعلوم.

إلاّ أنّ للمثال المخترع قوّة إقناعية وتأثيرية تختلف باختلاف **الأجناس الأدبيّة** والخطابية التي تستقدم المثال وتعوّل عليه، **والاستراتيجيات السردية** التي بها تُعرض الفكرة، **والأساليب التعبيرية** والوسائل الفنية التي يتمّ بها تسريد المثال وتطويره. فمسار البحث، من هذه الجهة، قائم على إبراز مظاهر التفرّد ورصد

---

4 Roland Barthes, L'ancienne rhétorique, In: **Communications**, 16, 1970, p 200 (article pp 172-223.) «Tous les orateurs, pour produire la persuasion, démontrent par des exemples ou des enthymèmes, il n'y a pas d'autres moyens que ceux-là (Aristote). Cependant une sorte de différence quasi esthétique, une différence de style s'est introduite entre l'exemple et l'enthymème: l'exemplum produit une persuasion plus douce, mieux prisée du vulgaire ; c'est une force lumineuse, flattant le plaisir qui est inhérent à toute comparaison ; l'enthymème, plus puissant, plus vigoureux, produit une force violente, troublante, il bénéficie de l'énergie du syllogisme ; il opère un véritable rapt, c'est la preuve, dans toute la force de sa pureté, de son essence».

5 أثيرت هذه المسألة عند الفلاسفة المسلمين من شراح أرسطو، عندما نظروا في أنواع المعارف والأدلّة موصولة بمراتب المخاطبين، وهي ثلاث: مرتبة من يفهم بالبرهان وهم قلة، ومرتبة من يقتنع بالجدل وعددهم قليل، أمّا العدد الغالب من الجمهور فواقع تحت تأثير الخطابة محكوم بها. وعلى هذا الأساس، رأى ابن سينا أنّ الخطابة ملكة وافرة النفع في مصالح المدن ولها قدرة بالغة على الإقناع والتأثير. ولذلك كانت الحاجة إليها في سياسة العوام. وفي مكوناتها ما يساعد على تحقيق هذا التأثير، ذلك أنّ للخطابة عمودا وأعوانا: أمّا العمود فهو القول الذي يظن أنه ينتج بذاته المطلوب. وأمّا الأعوان فهي الأحوال والأقوال، أو ما يُعرف بالدّلائل الذاتية، من فضائل القائل واستثارة العواطف والأهواء، ويسميها (الحيلة الإعدادية) وهي قول يُفاد به انفعال لشيء أو إيهام بخلق. فالإقناع لا يتمّ فحسب بالقول المقنع، بل قد يقنع المرء من غير أن يقدّم الحجّة أو يسوق البرهان، حسبه في سحنته وهيأته، ومظهره ومخبره أن يوحي بالشيء إن كان ذعرا لافتا وارتباكا واضحا دلّ على آفة حاصلة أو خطر متوقع، وإن كان وجهه مسرورا دلّ على خير أو بشارة. ينظر:

- ابن سينا: **الشفاء، المنطق، الجدل** (6) راجعه وقدّم له د. إبراهيم مدكور، حقق النّصّ وقوّمه وقدّم له د أحمد فؤاد الأهواني، القاهرة، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، 1965.
- الفارابي، كتاب في المنطق: **الخطابة**، تحقيق محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976 ص 23، 28، 31-34
- ابن رشد، **تلخيص الخطابة**، تحقيق وشرح: محمد سليم سالم، الجمهورية العربية المتحدة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة 1967 تصدير محمد أبو الفضل إبراهيم.

ومن المراجع التي ركزت على المثال والتمثيل ما أنجزه فؤاد بن أحمد، **منزلة التمثيل في فلسفة ابن رشد**، طبع في لبنان: منشورات ضفاف، دار الأمان الرباط، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى 2014 ينظر: ص 22، 24، 31، 34 (دواعي التمثيل) ص 99 (الحكايات الموضوعة في كليلة ودمنة)، ص 101 (جدول أنواع المثال)، ص 199 (سر المثال المخترع)، ص 215 (الدواعي الابستمولوجية والمقامية لوجود التمثيلات)، ص 221 (الدواعي السيكولوجية للتمثيل) وص 257 وما بعدها (التمثيل والاستعارة في الصناعة الجدلية).

6 ارجع أرسطو موضوعات المشاورة إلى خمسة هي الدخل les revenus والسلم la paix والحرب la guerre وحفظ الوطن وحماية المدينة la législation ومراعاة أمر الدخل importation والخرج exportation ووضع الشرائع وضبط المصالح وإلزام السنن pays du défense وفصّل القول في ما يحتاج إليه الخطيب المشاور في أمور الحرب والسلم من قبيل معرفة مواطن القوة في الدولة، وإمكانية تقويتها، ومعرفة الحروب التي حظيت بدعم، ووفق أي شروط، وضرورة معرفة قوة الدول المجاورة، وقوة العدو، والدول التي يمكن أن يُستنجد بها، وما حدود تلك القوة، وفائدة هذه المعارف تتيح للخطيب معرفة المجهول بالمعلوم، والتنبؤ بالمستقبل استنادا إلى الماضي وبناء عليه لأنّ الأمور في جوهرها متشابهة من جهة المقدمات المماثلة التي تفضي إلى نتائج مماثلة... (…) car les causes semblables amènent naturellement des résultats analogues

الخصوصيات أكثر مما هو قائم على جمع المشترك وتثبيت المقوّمات. وهو ما يعني أنّ للمثال المخترع قوّتين إحداهما عامّة ومشتركة تنطبق على سائر النصوص والآثار، وثانيتهما خاصّة ومتفرّدة تكشف عن براعة الأديب في استقدام الأمثلة وتوظيفها على نحو يُظهر فضله ويرسم نَهجه ويبرز تفرّده. ومجال البحث في هذا الضرب من الأمثلة متّسع لتنوّع النّصوص وتعدّد الآثار.

وعلى اتساع المجال، لا يزال (كليلة ودمنة) أنموذجا لكتب الأمثال، كلّما أنعم الباحث النّظر فيه وجده، على عراقته، حديثا محيّنا يحكي تجربة حيّة ويتكلم بلغة العصر كلاما يلغي ما بين نشأة النص وتقبله من فوارق الأزمان. وفي باب البوم والغربان، ثالث أبوابه، موضوع خطير، في سياسة الأعداء، ونهج في التّعبير والتّفكير بليغ مثير، قوامه الكتمان والإخفاء. وقد تعدّدت فيه الأمثال تعدّدا يبعث على التساؤل عن مصادر قوتها الإقناعيّة ويدعو إلى النّظر في مسوّغات تفاضلها وتفاوت درجاتها في سلّم الإقناع والتأثير.

ويسعى هذا البحث إلى تدبّر الجواب على هذا السؤال بالتركيز على ثلاثة مستويات نصيّة إجرائيّة في ضوئها تتحدّد قيمة الأمثال وتُرصد قوّتها التأثيرية:

- مستوى الجنس الأدبيّ المتخيّر وهو بمنزلة المقام والإطار الأسلوبي العام الذي يتنزل فيه المثال، إذ ليس المثال المنزّل في سياق المناظرة والجدل كالمثال المنزّل في سياق المذاكرة والمشاورة والمساجلة والمسامرة وغيرها من أجناس القول وفنونه.

- مستوى التسريد وقوامه النظر في استراتيجيات السارد في عرض المادة الحدثية وتوزيعها.

- مستوى تطوير السّرد وأساسه النظر في مختلف التقنيات التي أتاحت للكلام أن يُبسط، وللنصّ أن يتوسع، وللمثال أن يطول ويتشعّب.

1- تأثير الجنس الأدبيّ: مقام الاختلاف، سياق التشاور، غاية الإقناع:

الناظر في المنجز النقدي للأمثال لا يخطئ أن يلاحظ انحصار البحث في دراسة جنس أدبيّ مخصوص هو **الحكاية المثليّة**. ومن خصائص الحكاية المثلية «أنّ السّرد القصصي فيها غير مطلوب لذاته ولا لغاية فنيّة خالصة وإنما يطلب في المقام الأول بوصفه مطيّة لبلوغ الهدف الوعظيّ التعليميّ: نشر الحكمة أو التعريف بها أو التذكير»[7]. ومن خصائصها أنّ السارد ينهض فيها (في كليلة ودمنة على وجه التحديد) بثلاث وظائف ويؤدي ثلاث عمليات خطابيّة ذهنيّة أولاها التقديم لتحقيق الوظيفة التقريرية، وثانيتها التسريد لتحقيق الوظيفة التمثيلية، وثالثتها التعليق أو التّعقيب لتحقيق الوظيفة التأويليّة. بالتسريد ينشأ التشويق والترغيب وتولد أجناس أخرى قد تكون غير سرديّة. وبالتعليق يزول التفاوت بين المعنى المراد تبليغه وطاقة المتلقي على الاستيعاب. وعلى هذا الأساس يشبّه بن رمضان الحكاية المثلية بالرواية ذات الأطروحة لكون المعنى محدّدا للشكل ولمقصدية السرد، ولكونها جنسا غرضيّا تملي فيه الاستراتيجيةُ النفعيّةُ العمليّةُ الصيغةَ التعليميةَ للحكاية المثليّة، فيكون للمعنى وجهان ظاهر عابر وباطن جوهر يدرك بالتأويل. والحكاية المثلية لا تنتج معنى بل تعيد إنتاج معنى سابق وقع التعبير عنه في التقديم. إنها عود على بدء دائما، وهي قائمة على أوحديّة المعنى، محصّنة ضدّ الاختلاف. وينهي فرج بن رمضان مقاله بالتساؤل: هل يمكن أن نقرأ الحكاية المثلية قراءة حديثة تؤكّد على صبغتها الاختلافية التعددية؟[8]

ولكنّ الاختلاف في الحكاية المثلية سمة مميزة وحقيقة قائمة وهو نواة تشكّلها وقادح تطوّرها. والقول بأوحديّة المعنى ليس معناه انغلاق النصّ ورفضه قراءات ممكنة غير التي اقترحها الكاتب، وإنما هو اختيار نابع من اقتناع فكريّ مؤثر في سياسة التعدّد والاختلاف، دافع إلى الانتصار لفكرة ما ومحاولة إظهارها والتأكيد عليها. ولنا في باب البوم والغربان ما يؤكّد منزلة الاختلاف في بناء المثال وتطويره.

يتصل **باب البوم والغربان** بموضوع أنواع العداوات وطرائق معالجتها. فقد ذكر ابن المقفع ضروبا من العداوة وأوجد لكلّ ضربا منهجا سلوكيّا مخصوصا. ومن أهمّ ما ذُكر في هذا المجال أنّ العداوة والصّداقة لاتثبتان على حال واحدة وإنّما هما متبدلتان متحوّلتان محكومتان بما يطرأ على العلاقات عموما من الحوادث والعلل فإذا بالعداوة «تتحوّل مودّة وصداقة مثلما تتحوّل المودّة والصداقة عداوة». وهذا الضّرب يدركه ذوو الرأي والتجارب ويكيّفون سلوكهم وفق ما يرونه ملائما فلا يمتنع العاقل عن مقاربة عدوّه والاستنجاد به متى رام استجلاب نفع أو استدفاع أذى أو اتقاء مكروه مخوف من قبيل ما ورد في باب الجرذ والسنور. إلاّ أنّ ابن المقفّع لم يطمئنّ كثيرا إلى صداقة العدوّ فانتهى إلى أنّها مقاربة مُكره وصداقة مضطرّ ومصالحة محترس وتواصل محكوم بتحقق النفع والفائدة باعث بعدئذ على التحفظ والحذر خشية الغدر وسوء العاقبة مثل الجرذ لا يقطع جميع حبائل السنور حتى يستوثق من انشغاله عنه ويتيقّن من عجزه عن إلحاق الأذى به. لاشكّ في أنّ هذا الصنيع قادر على تخليص المتورط من ورطته مرغّب في مدّ جسور التواصل ومجازاة

7 فرج بن رمضان، مكانة المعنى وصفاته في الحكاية المثليّة، **حوليات الجامعة التونسيّة**، ع46 س 2002، ص: 311-267

8 المرجع نفسه والصفحات نفسها.

الجميل بالجميل لأنّ «من اتخذ صديقاً، وقطع إخاءه، وأضاع صداقته، حُرِمَ ثمرة إخائه، وأيس من نفعه الإخوان والأصدقاء» غير أنّ التواصل في هذا المقام مغشوش وضرب من العلاقات ملتبس ليس من اليسير تخليص الضدّ من الضدّ ولا تبيّن حدوده فـ«ربَّ صداقة ظاهرة باطنها عداوة كامنة» وجب اعتبارها لحظة التّقارب والتصالح والاقتناع بأنّهما كانا لحاجة حملت عليهما حتى إذا ما انقضت تلك الحاجة انقطعت أسبابها وزال الأمر الباعث عليها. وتحدّث ابن المقفع عن العداوة المموّهة، وهي في أصلها صداقة، وذلك من قبيل ما يفعله العاقل إذا خاف ضرّ الصديق أظهر له العداوة وقطع عنه بعض ما كان يصله. وهي ليست من صنوف العداوات الضارّة لأنّ أصل أمرها لم يكن عداوة. ولعلّ أهمّ ضروب العداوات التي حظيت باهتمام الكاتب وضرب لها الأمثال والحكم هي عداوة أهل التّرات الذين لابدّ لبعضهم من اتقاء بعض وهو ما نتبيّنه في باب ابن الملك والطائر فنزة، وفيه انتهى ابن المقفّع إلى أنّ «الضّعيف المحترس من العدو القوي أقرب إلى السلامة من القوي إذا اغتر بالضعيف واسترسل إليه» لأنّ في سرعة الاسترسال تكون الغفلة ويكون السقوط ولا تُقال العثرة لذلك رأى ابن المقفّع أنّ العاقل قد يصالح عدوّه إذا اضطرّ إليه ولم يجد من ذلك بدّا لكن من دون أن يثق به، ويصانعه ويظهر له ودّه من غير أن يأتمنه على نفسه، ويريه من نفسه الاسترسال إليه من دون أن يأنس به وينبسط إليه، ثم يعجّل الانصراف عنه، حين يجد إلى ذلك سبيلا.

وفي هذا الإطار يتنزّل باب البوم والغربان. وهو ثالث أبواب كليلة ودمنة يعلن في فاتحته عن موضوعه ومدار الأمر فيه. يُستهلّ بسؤال الملك الفيلسوف: «أخبرني عن العدوّ هل يصير صديقا وهل يوثق في أمره بشيء وكيف العداوة وما ضررها وكيف ينبغي للملك أن يصنع إذا طلب عدوّه مصالحة». ويطلب إليه أن يضرب له مثلا للعدوّ الذي لاينبغي أن يُغترّ به وإن أظهر تضرّعا وملقا. ويسعى بيدبا الفيلسوف إلى إقناع الملك دبشليم بأنّ أهل العداوة لا ينبغي أن يُغترّ بهم وإن هم أظهروا تودّدا وتضرّعا وتملّقا مُجريا هذه الفكرة المجرّدة في حكاية مثليّة كبرى من صلبها تولّدت حكايات أخر.

فالباب من حيث **موضوع القول** وغرضه كلام في ضرب من ضروب العداوة وفي كيفية سياسة الأعداء وطرق استطلاع أخبارهم. والباب من حيث **الجنس الأدبيّ** حكاية مثلية، من قصص الحيوان غير أنّ الأساليب التعبيرية المميزة لهذا الجنس تتيح إنماءه إلى جنس **المشاورة** بوصفه جنسا حجاجيّا قائما على سياسة الاختلاف: ينطلق من وجود معضلة، ويبحث في الآراء والمقترحات لينتهي إلى الاختيار الناجع ويذكر مسوّغاته. وقد كانت خطّة النصّ قائمة على مدّ المستشير بالرأي الناجع المتمثّل في عدم الرّكون للعدوّ مهما يُبد من تضرّع واسترحام ومهما يظهر من تودّد وتقرّب لأنّ ذلك داخل في باب الغدر والخديعة للوصول إلى المآرب. وعلى هذه **الفكرة المركزيّة** قام باب البوم والغربان، وضبطت استراتيجيات السّرد فيه، وتوزّعت الأقوال وتمّ تطوير المثال لتحقيق جملة من المقاصد التأثيرية.

1-1- معضلة الغربان:

يغير ملك البوم في أصحابه على الغربان في أوكارها ليلا فإذا هي بين قتيل وجريح وسبيّ وذليل مكسور الجناح منتوف الريش مقطوف الذنب، ممتنع الطمأنينة، شديد الرّعب من جرأة البوم عليها واقتحامها حرمها، متوقّع عودتها لانكشاف أوكارها. وتجتمع الغربان إلى ملكها وتطلب إليه النّظر في أمرها وإيجاد الحلّ القادر على تخليصها من الأذى وتحصين نفوسها وأوطانها من نوازل المكروه. ويجتمع الملك بوزرائه الخمسة – وهم المعروفون بحسن الرأي وعليهم المعوّل في حلّ المعضلات وإيجاد الحلول لما يعرض من الحوادث والنوازل- ويسألهم مستشيرا مستطلعا رأيهم:

يرى أوّل الوزراء ضرورة مفارقة المكان والجلاء عن الأوطان حجّته في ذلك ما قالته العلماء من أنّه ليس للعدوّ الحنق إلاّ الهرب منه لأنّ قتال المرء من لا يقوى عليه رديف لمن يحمل نفسه على حتفها. ويؤكّد ثاني الوزراء هذا الرّأي ويعضده مؤثرا سلامة الإنسان على ملازمة المكان. ويرى ثالث الوزراء أنّ الهدنة والفدية والصّلح في مثل هذه الأحوال أسلم حلاّ، لاسيّما إذا عظُم العدوّ واستقوى أمره واشتدّ بطشه ولم يعد يؤمن جانبه. لذلك يقترح صلحا يعقده مع الأعداء وخراجا يؤدّيه إليهم كلّ سنة ساعيا إلى حقن الدّماء جاعلا الأموال جُنّة البلاد والعباد. ويرى رابع الوزراء محاربة العدوّ أمرا لازما لابدّ منه، يدفعه إلى ذلك إيمان بقيم العزّة والشّرف واقتناع بأنّ الغربان أشرف من البوم حسبا، ويقين من أنّ العدوّ إذا ما استُرضي لا يرضى إلاّ بالشّطط فضلا عمّا في مفارقة الأوطان من الذلّ والهوان وضنك العيش وقسوة الغربة. لذلك لا يرى غير القتال نهجا يضمن الموت العزيز أو الحياة الكريمة.

نحن إذن، إزاء آراء أربعة أوّلها وثانيها متفقان، ممّا يجعلنا إزاء ثلاثة حلول ممكنة: **القتال أو الصّلح أو مفارقة الأوطان**.

1-2- وضع البوم: المعضلة الآراء المقترحة:

تقمّص الغراب الوزير صورة الضعيف الأسير يقع في حرم البوم، ويسعى إلى استدرار عطفهم وشفقتهم بمخادعات الأحوال ومغالطات الأقوال. وعندما يسأل ملك البوم وزراءه في شأن الغراب الوزير الأسير، لتقرير مصيره ينشأ الاختلاف وتبرز ثلاثة آراء لها من الأمثلة والحجج ما يدعمها:

يدعو الرّأي الأوّل إلى التّعجيل بقتل العدوّ. ولصاحب هذا الرّأي حجّتان صيغتا صياغة الحكمة تصحّ في مطلق الزمان والمكان. أولاهما منزلة الغراب الأسير بين بني جنسه، فهو أفضلهم وأمكرهم وفي التعجيل بقتله تحقيق نصر كبير وتكبيد العدوّ عظيم الخسران، شأن الأتباع في فقد قائدهم فإذا هم بفقده عمي لا يبصرون. وثانيتهما موصولة بسياسة الحرب متعلّقة بنظام الأشياء وطبائع الأمور، ذلك أنّ للحرب تارات وللأفعال حالات يعسر فيها يسيرها وييسر فيها عسيرها فـ«من ظفر بالساعة التي فيها ينجح العمل ثم لا

يعاجله بالذي ينبغي له فليس بحكيم ومن طلب الأمر الجسيم فأمكنه ذلك فأغفله فاته الأمر وهو خليق ألا تعود له الفرصة ثانية ومن وجد عدوه ضعيفاً ولم ينجز قتله ندم إذا استقوى ولم يقدر عليه».

ويقترح صاحب الرّأي الثاني استبقاء العدوّ والصفح عنه لاسيّما إذا كان ذليلا لا ناصر له، خائفا يستجير أمنا. ينهل صاحب هذا الرّأي من معين القيم الإنسانيّة التي ترى وجوبا نصرة المستضعف وإغاثة الملهوف وإجارة الخائف وإطعام الفقير والصفح عمّن جاء معتذرا والعفو عند المقدرة. فتلك القيم من شيم الإنسان إذا صفا ذهنه وسلمت سريرته ففكّر معتبرا ودبّر مختبرا. فكم مقترف ذنب قوّمه الصفح والعفو فأقلع، وكم صاحب جرم تاب وندم لمّا قوبل بالتسامح وعومل بالإحسان.

أمّا صاحب **الرّأي الثالث** فمقتنع باستبقاء العدوّ قصد الانتفاع به وتسليطه على بني جنسه بجعله عينا عليهم ووسيلته الخفيّة إليهم للايقاع بهم وبذر الشكّ فيهم. فخليق بالعاقل، في نظره، أن يبثّ العداوة في صفوف أعدائه ويحمل بعضهم على بعض لأنّ في ذلك تمام الظّفر وتحويلا للصّراع من دائرة طرفاها الخصمان المتصارعان إلى دائرة يقاتل فيها الخصم نفسه بنفسه، كالنّار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله. وقد حظي هذا الرّأي بنصيب وافر من الأهميّة والتركيز إذ أُجري في حكاية هي **حكاية النّاسك الذي نجا من اللصّ والشيطان** حين اختلفا.

ولهذه الآراء الثلاثة ثلاث مرجعيات قيميّة: أولاها القيمة الإنسانيّة المشدودة إلى مبادئ التسامح وحسن المعاملة، وثانيتها القيمة السياسيّة المحكومة بالمنفعة والمصلحة، وثالثتها القيمة الوجوديّة القائمة على التفكير في ضمان الوجود وتأمين البقاء. وهذه القيم تُدرك منازلها في ضوء استراتيجية السرد والتأليف.

2- تسريد المثال:

يقوم باب البوم والغربان على فكرة مركزية وُظّف السّرد لإجلائها وتأكيدها بالتركيز على معضلة الغربان وهي تبحث عن أنجع الحلول لضمان الأمن والقوة والبقاء، وبضرب المثل المضاد المنعقد على حال البوم في مواجهة الغراب الأسير. فبأضدادها تتميّز الأشياء.

2-1- استراتيجية الإخفاء:

في الحديث عن معضلة الغربان ثلاثة مشاهد: تجري أحداث المشهد الأوّل في **محفل عامّ**، ومداره على **شكوى الغربان إلى السلطان**، ينطلق من وضع تأزّم ويبعث على تدبّر أفضل الحلول لتحصين النفوس والأوطان من نوازل المكروه. فيكون المشهد الثاني باجتماع السلطان بالوزراء الخمسة، في **مجلس سرّي، يستطلع فيه آراء الأعوان**. يتدخّل ملك الغربان فيسأل خامس وزرائه عن أفضل الحلول (القتال أو الصلح أو مفارقة الأوطان) فيسلك الوزير المستشار في الجواب مسلكين: في المسلك الأوّل حكم ونصائح بعضها يدحض على العلن ما قدّم من آراء، من أنّه لا سبيل للمرء إلى قتال من لا يقوى عليه، وأنّه على المرء أن

يهاب عدوّه ويتّقيه ويحذره ولا يستصغر شأنه، وأنّ المبذول في الحروب أعظم من المبذول في السّلم لأنّ مدار الأمر فيه على الأنفس والأبدان فضلا عن الأموال. ويخلص إلى أنّ الملك المهيب الخليق بدوام الخير والملك لابدّ أن يكون متخيّرا للوزراء محصّنا للأسرار. وللأسرار منازل. ههنا ينشأ المسلك الثاني في الحوار وفيه يعد الوزير الملك بحلّ ممكن أوّل شروطه حفظ الأسرار. فيكون المشهد الثالث بالانتقال من مجلس المستشارين وفيه الملك ووزراؤه الخمسة، إلى **مجلس سرّي مطلق**، فيه طرفان هما الملك المستشير والوزير المستشار الواعد بتدبير الأمور. **وعلى قدر خطورة القرار تكون مجالس الأسرار.**

والإخفاء - بهذا المعنى - رديف السرّ (le secret) والسريّ (le confidentiel) والقول المصون[9] (le gardé) وهو فعل قصديّ إراديّ يلجأ إليه صاحبه لا لتعطيل التّواصل وإنّما لتقليص دائرة التقبّل إلى أقصى ما يمكن أن تبلغه تأمينا لمحتوى القول، وحفظا إيّاه من الذّيوع والانتشار، واقتدارا به على بلوغ عصيّ المقاصد وإدراك عظيم الأمور. وإذا كان من طبع الإنسان أن يأنس إلى مثله ويفضي إليه بمكنونه إفضاء غالبا ما يجري فيه على السجيّة متحرّرا من إكراهات القول وما فيه من مشقّة الحفظ والصّون وعناء الصمت والسرّ، فإنّه في مقامات عديدة يُدعى إلى التكتّم والإخفاء إمّا وعيا منه بخطورة الكلام على الملأ وما يترتّب عليه من شطط التأويل وتحميل الكلام ما لا يحتمله المقام، وإمّا ضنّا به على غير أهله لاعتقاد راسخ بأنّ الكلام سياسة قائمة على التبصّر بساعات القول وميز الحالات الباعثة على الإباحة والطلاقة والاسترسال من الحالات الموجبة للسّكوت الدّاعية إلى الحفظ والكتمان. وتعظم مسؤولية المتكلم وتشتدّ خطورة الكلام إذا ما تعلّق بسياسة الإنسان، ذلك أنّ الحياة الاجتماعيّة لا تستقيم على النّحو الذي يلطّف العلاقة ويرأب الصّدع ويحقّق التواصل ويضمن البقاء حتّى تخضع لأنظمة من العلاقات وجملة من المواضعات لا يُمتنع فيها إغلاق بعض موضوعات القول أو التحفّظ في مباشرتها أو طَرقها بضرب مخصوص من صور التّعبير من قبيل الإيحاء الدّالّ، والإشارة الخفيفة، والكناية، والتلويح، والرّمز المكثّف، والاستعارة التمثيليّة وغيرها من وسائل التلطيف والإبلاغ.[10] وهو ما يؤكّد أنّ الكلام مقامات منها ما يقتضي الإسرار وأنّ الأسرار منازل تتفاوت بحسب خطورة الموضوع وأهميته والغايات المرجوّة منه. وإذا كانت العلاقة بين الأصدقاء وحتى

---

9 المصطلحات الدالة على الإخفاء كثيرة، والحدود بينها عسيرة التدقيق إذ منها ما يتعلّق بالرغبة في الكلام (ما يمتنع قوله l'ineffable) والممنوع قوله (l'interdit) ومنها ما يوصل بالقدرة على الكلام (ما لا ينقال l'indicible) ومنها ما يقترن بطرائق تأديته وإبلاغه من قبيل المضمر والضمنيّ (l'implicite) والمهمت(entendu-sous) والمسكوت عنه (le dit-non). ينظر:

- عادل خضر، في القول المسلوب: من (المسكوت عنه) إلى (ما لم يقل بعد)، ضمن المسكوت عنه، ندوة قسم العربيّة بكليّة الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، نوفمبر 2010 ص ص 19-32
- كمال بوخريص، السرّ ومحنة الصمت، ضمن المسكوت عنه، المرجع نفسه، ص ص 177-195
- بسمة بلحاج رحمومة الشكيلي، هل المسكوت عنه هو ما لايقال؟ ضمن المسكوت عنه، المرجع نفسه، ص ص 61-86

10 تناول بيار فاندونهافل (Pierre Van Den Heuvel) أهميّة الصمت في العمليّة التخاطبيّة ضمن وحدة ثلاثية تكوّن البنية التحتية للغة (infra-langage) وتنهض بوظائف عديدة منها ضمان التواصل وتوفير أسباب البقاء. ص 9، ينظر أيضا: فصل الصمت الإراديّ (volontaires silences) ص 65، 69، 73 والصمت اللاإرادي (involontaires silences) ص 80، وإذا كان فان دان هوفل قد نظر في هذه المسألة من جهة كفاية الأجهزة اللسانية في تزويد المتكلم بما به يعبّر عن مكنونه وأشار إلى مختلف الظروف التي يتعذّر فيها القول فإنّ للصمت كما نجريه في عملنا مفهوما مختلفا نسبيا عمّا ورد في هذا الكتاب لأنّه اختيار مقصود محكوم باستراتجية تواصليّة تعوّل أساسا على حفظ القول وكتمان السرّ لبلوغ الغاية وإدراك المقصد. ينظر:

Heuvel (Pierre van Den) *Parole, Mot, Silence: pour une poétique de l'énonciation*, librairie José Corti, 1985

بين الأصفياء منهم تقتضي قدرا من الإخفاء فإنّ صون القول يعظم شأنه خارج دائرة الأصدقاء وتتضاعف أهميّته في التّعامل مع الأعداء لأنّ الدّوافع إليه أكثر تعقيدا، وطرائق انعقاده وإنجازه أدقّ من أن تُدرك، والمقاصد منه بعيدة المدى وإن خالها المرء للوهلة الأولى قريبة.

وهذا المجلس السري المطلق الذي يجري بين ملك الغربان ووزيره المستشار هو أطول المشاهد وأهمّها وعليه في هذا الباب المدار. يوحي بأنّ الوزير يمتلك حلاّ للمعضلة وجوابا على السؤال إلاّ أنّه لم يرغب في الكشف عنه احترازا من تداوله بين النّاس واقتناعا بأنّ قوله من جنس الأقوال التي إذا ما ألقيت في المجالس انكشف سرّها وبطل نفعها. وقد آثر الوزير الإخفاء لغاية تنكشف بتقدّم الأحداث في النصّ. وبذلك يحقّق الإخفاء وظيفة الإغراء إذ يجعل النّفوس أشدّ ما تكون تلهّفا لكشف أسرار المجالس واستطلاع القول المصون، ويجعل العقول مثقلة بالحيرة والسؤال ترسم آفاق الانتظار. وبذلك يضمن الإخفاء دقّة المتابعة وحسن الإصغاء.

يقول الوزير للملك: «وقد استشرتني في أمر جوابك منّي عنه، في بعضه علانية، وفي بعضه سرٌّ وللأسرار منازل» ويمثّل هذا القول في نظرنا لحظة حاسمة في توجيه مسار السّرد وحدّا فاصلا واصلا بين طريقتين في التفكير ترجعان إلى ما تقتضيه الحكمة أو النصيحة في مجال السياسة من تدبير. فإذا كانت الحكمة، في مجال الدّين، ضالّة المؤمن يجدّ في طلبها وينشرها متى ظفر بها فإنّها في مجال السّياسة من العلم المضنون به على غير أهله، تُصان في الصّدور وتُحفظ في الخزائن وتُقدّم متى أمنت سرّاق السّمع واستوفت سائر شروط التّقديم من خلوة المجالس وكتمان الأسرار عن كلّ خاصّ وعامّ، وخفوت الصّوت وتخيّر شكل التّعبير واعتماد الإشارة الخفيفة واللمحة الخاطفة دون إغراق في التفاصيل فضلا عن مراعاة آداب التخاطب لاسيّما إذا كانت الحكمة ملكيّة وكان النصّح موجّها إلى الملوك لأنّ كثرة النّصح تهجم على سوء الظنّ وابتداءه ملزم صاحبه بذكر أسبابه وتوضيح صواب الرّأي فيه، ولأنّ إنجازه لا يخلو من دلالة على تجوّز النّاصح وتبسّطه ما لم يكن فيه اجتلاب نفع أو استدفاع ضرر.

إنّ الإطار الذي احتضن هذا الرأي كفيل باستثارة النفوس والأذهان وإغرائها لأنّ من سجايا النفوس استطلاع الأسرار والميل إلى كلّ خفي ومحتجب. وإيراد المثال في هذا الإطار يُكسبه قوة تأثيرية آتية من أجواء الكتمان والإخفاء التي أحاطت بهذا المجلس السرّيّ، وفيه يبدأ الحوار بين الملك والوزير باستقصاء أسباب العداوة لمعرفة نوعها وتدبّر السّبل الكفيلة بمعالجتها. وتمثّل هذه المرحلة من أحداث النصّ مرحلة معالجة الدّاء لاختيار المناسب من الدّواء. وتنقسم بدورها إلى مرحلتين: مرحلة الفهم (العلم) ومرحلة الإنجاز (العمل).

2-1-1- تدور **مرحلة الفهم على البحث في أصل العلّة** لتشخيص الدّاء وتحديد النّاجع من الدّواء. ويجيب الوزير على سؤال الملك: «نعم: كلمة تكلّم بها غراب». ويسرد حكاية غراب استشارته مجموعة من الكراكي لم يكن لها ملك فأجمعت أمرها على تمليك البوم عليها. وهذا الاختيار حفّز الغراب على إبداء رأيه

مستغربا تمليك البوم ذاكرا ما في هذا الجنس من مقابح وعيوب ناصحا الكراكي بالعدول عن قرارها داعما قوله بالحجج عاضدا إيّاه بالحكم والأمثال. ويتحقّق المقصد التأثيريّ بإضراب الكراكي عن تمليك البوم: «فلما سمع الكراكى ذلك من كلام الغراب أضربن عن تمليك البوم».

ها هنا يبدو الأمر مألوفا متى نظرنا في مجمل أحداث الحكاية والنتيجة التي انتهت إليها في ضوء العلاقة القائمة بين المستنصح والناصح والمستشير والمشير. فالأوّل طلب النصيحة حائرا والثّاني أفاده بها مخلصا إلاّ أنّ ابن المقفّع يوجّه مسار الأحداث في الحكاية توجيها مغايرا جاعلا وضعَ القول في غير موضعه أصلَ الدّاء ومعضلةً كبرى تُحدث من التّرة أعظمها ومن الحقد والعداوة والبغضاء ما لا يبلوه الزمان. ويؤكّد هذه الفكرة ببليغ التشبيهات والاستعارات مجريا إيّاها بطريقتين في التعبير متمايزتين، وردت الأولى على لسان بوم حاضر قد سمع ما قال الغراب:

«وبعد فاعلم أن الفأس يقطع به الشجر فيعود ينبت، والسيف يقطع اللحم ثم يعود فيندمل، واللسان لا يندمل جرحه ولا تؤسى مقاطعه. والنّصل من السهم يغيب في اللحم ثم ينزع فيخرج، وأشباه النصل من الكلام إذا وصلت إلى القلب لم تنزع ولم تستخرج. ولكل حريق مطفئٌ: فللنار الماء، وللسم الدواء وللحزن الصبر ونار الحقد لا تخبو أبداً. وقد غرستم معاشر الغربان بيننا وبينكم شجر الحقد والعداوة والبغضاء»

أمّا الطريقة الثانية فكانت حوارا باطنيّا جرى على لسان الغراب نفسه عندما أحسّ بالنّدم على ما فرط منه. إنّها كلمة أعقبت ندما وبذرت ثأرا وأورثت حقدا وضغينة وأنبتت في القلب سهاما ونصالا وجرّعت صاحبها ترياق السمّ ورسمت مصيرا لا عاقبة له محمودة.هذا شأن الكلمة تملك صاحبها إذا نفذت منه وكان صاحبها بالصّمت مالكها. وما كان أغناه عن التكلّم في الأمر الجسيم دون تروّ وإعمال عقل واستشارة للنصحاء. إنّه بإيجاز **وضع القول في غير موضعه**. فما كلّ خفيّ وجب إجلاؤه ولا كلّ حقيقة وجب التصريح بها. أو ليست البلاغة- في نظر ابن المقفّع- في الصّمت أضعاف ما هي في الكلام؟

وللسؤال عن أصل ابتداء العداوة في هذا السّياق من الباب ثلاث وظائف متكاملة: **أولاها** فكريّة تكشف عن طريقة التفكير المنطقية القائمة على وصل الظواهر بأسبابها، وفي ذلك دعوة صريحة إلى تعقّل الفكر والسّلوك وردّ ضمنيّ على من علّق الأسباب بالقدر وتبرّأ من مسؤولية ما اقترف من شنيع الأفعال. **وثانيتها** سياسيّة تبيّن نوع العداوة لتحديد أنماط السلوك التي يوجبها العقل في مختلف الحالات والمقامات. وقد بان أنّ نوع العداوة بين البوم والغربان يوحي في ظاهره بأنّه من جنس العداوة السياسيّة القائمة على تمييز عرقيّ بين البوم والغربان تغذّيه التصورات الجماعيّة التي تقوم في الأذهان بصدد الفروق إلاّ أنّه ما كان لينقدح لو وُضع القول موضعه ولم يتناول الحرمات والأعراض هتكا وفتكا. وهذا الضّرب من العداوة لا يمكن تعديله أو تلطيفه لأنّ جرح اللّسان لا يندمل ونصال الكلام متى بلغت القلب لا تُنزع ولا تُستخرج ونار الحقد لا تخبو أبدا. وعلى هذا الأساس يصبح الصراع بين البوم والغربان صراع وجود يهدف إلى استئصال

العدوّ لا صراع حدود يرسم ما لهما ويضبط ما عليهما.[11] أمّا **ثالثة الوظائف** ففنّية متمثّلة في توسيع آفاق السّرد لتضمين بليغ الحكم والأمثال فهي الرّهان. وعليها المعوّل. ومن هذا السّؤال نشأت حكاية الكراكيّ مع الغراب. ومن صلب هذه الحكاية تولّدت حكايتان وردتا على لسان الغراب في سياق الاستدلال على سوء خلق البوم وقلّة عقلها وشدّة غضبها وما فيها من خبّ ومكر وخديعة: الحكاية الأولى هي **حكاية الأرنب التي زعمت أنّ القمر ملكها ثمّ عملت برأيها**، أمّا الحكاية الثانية فهي **حكاية الأرنب والصّفرد حين احتكما إلى السّنّور** الذي خادعهما بأن أظهر لهما الخشوع والتنسّك حتّى إذا ما أنسا إليه وأقبلا عليه وثب عليهما وقتلهما. وبالسؤال والجواب أمكن تشخيص الدّاء ضمن مرحلة العلم والفهم بوصفها أولى مراحل الظّفر، غير أنّ هذه المرحلة لا يُكتفى بها لذاتها وإنّما هي سبيل لمعالجة الدّاء بما يناسب من أنواع الدّواء لاسيّما في مواجهة الخصوم وفي سياسة الأعداء. هاهنا يكون الانتقال من مرحلة العلم إلى مرحلة العمل.

2-1-2- مرحلة العمل:

تتمثّل **مرحلة العمل** في عقد الوزير المستشار خطّةً سياسيّةً بدايتها الاختراق ونهايتها المباغتة وغايتها سدّ المنافذ على العدوّ للإطباق عليه واستئصاله استئصالا. بالاختراق يكتسب الغراب علما عميقا ويعدّ تخطيطا دقيقا، وبالمباغتة ينفّذ مشروعا محكما وينجز فعلا عزيز المنال.

يحصل الاختراق بمخادعات الأحوال ومغالطات الأقوال. تقتضي مخادعات الأحوال الظهور على هيأة مخصوصة وإبراز الذّات في الصورة المناسبة الكفيلة بتحقيق المقصد التأثيريّ الذي يروم المتكلّم إحداثه في المتلقّي، من دون أن تطابق الواقع في أغلب الأحيان[12] لأنّ صورة الذات بمنزلة القناع المساعد على تحقيق الإقناع.

---

11 موريس دوفريجيه، **مدخل إلى علم السياسة**، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي، دار دمشق، (د ت) ص36-37: لاشكّ في أنّ التمييز بين العروق عامل مهمّ من عوامل العداء السياسيّ. ليس ناشئا في الأصل عن طبيعة العروق من الناحية الفيزيزلوجية بل عن التصورات الجماعيّة التي تقوم في الأذهان بصدد الفروق وعن أنواع السلوك التي تترتب على ذلك. وهذه التصورات الجماعية تنشأ هي نفسها عن ظروف اجتماعية أو نفسيّة. إنّها تنشأ عن خطّة سياسيّة تهدف إلى التمويه

12 المراجع على ذلك كثيرة، نذكر منها:

Aristote, *Rhétorique*, Introduction de Michel Meyer, traduction de Charles-Emile Ruelle, revue par Patricia Vanhemelryck, commentaires de Benoit Timmermans, Librairie Générale Française, 1991.

Boudon (Raymond), L'art *de se persuader des idées douteuses, fragiles ou fausses,* Éditions Fayard 1990.

Chatman (Seymour), Arguments et narrations, in: *L'argumentation*, Colloque de Cérisy, éd. Mardaga, 1991.

Declercq (Gilles), *Avatars de l'argument ad hominem in,* La Parole polémique, études réunies par Gilles DECLERCQ, Michel MURAT et Jacqueline DANGEL, Paris, Champion, 2003.

____, *L'art d'argumenter*, Éditions Universitaires, 1992.

Charaudeau (P.). (sous la direction de), *Identités sociales et discursives du sujet parlant*, l'Harmattan ; 2009

Wauthion (M.) et Simon (A.C) ,(édité par), *Politesse et Idéologie: Rencontres de pragmatiques et de rhétorique conversationnelles*, Peeters Louvan-La-Neuve, 2000

وفعل الاختراق مشروط في تحقّقه على الوجه الأكمل بتضافر أمرين: قوّة الذات المخترقة وفطنتها وقدرتها على الحذر والإخفاء من جهة، وغفلة الذات المخترقة وحسن ظنّها واستسلامها من جهة ثانية. وتحقّق التأثير مشروط بمعرفة عميقة بالآخر (المستهدف) حتّى تُتخيّر الصّورة المناسبة الكفيلة بإيقاع ذلك التأثير. لذلك تتنوّع صور الذّات وتختلف باختلاف أوضاع المتلقّي ومقامات التواصل والتخاطب ونوع التأثير المراد تحقيقه. وعلى هذا التنوّع توجد صور نمطيّة قادرة على عطف القلوب لاسيّما متى استندت إلى جملة من القيم التي تنطبق على الإنسان في مطلق الزمان والمكان. وتتمثّل المغالطة في إظهار الذات في مظهر الضّعف والعجز استرحاما واستدرارا للشفقة والعطف:

«وإني أريد من الملك أن ينقرني على رؤوس الأشهاد، وينتف ريشي وذنبي، ثم يطرحني في أصل هذه الشجرة، ويرتحل الملك هو وجنوده إلى مكان كذا. ففعل الملك بالغراب ما ذكر، ثم ارتحل عنه فجعل الغراب يئنّ ويهمس حتى رأته البوم وسمعته يئنّ، فأخبرن ملكهنّ بذلك».

ويُنفّذ الجزء الأوّل من الخطّة. ويقع الغراب في حرم البوم. كان يمكن للحكاية أن تنتهي عند هذا الحدّ بقتل البوم الغراب. ولكن... تتواصل الأحداث ويُتاح للغراب تنفيذ الجزء الثاني من الخطّة المتمثّل في اعتماد مغالطات الأقوال[13] لمزيد الإيهام والتأثير.

من هذه المغالطات إظهاره الرغبة في الانتقام من أبناء جنسه الغربان لما لحقه منها من العدوان والذلّ والهوان والاعتذار بحجّة العجز وضعف الحيلة، ومنها تعبيره عن الاستعداد للتضحية بنفسه والعدول الماكر عنها. وإذا كان من شأن صوغ الأقوال على هذا النّحو أن يستجلب الشكّ في صدق القائل وسلامة طويّته فإنّ الغراب يضيف من الأقوال ما يظهر عزمه على التضحية والفداء وتقديم نفسه قربانا إظهارا لمبلغ الطاعة والوفاء واكتسابا لمزيد الثقة به والاطمئنان إليه:

«ثم إن الغراب قال للملك يوماً وعنده جماعة من البوم وفيهن الوزير الذي أشار بقتله: أيها الملك قد علمت ما جرى عليّ من الغربان وأنه لا يستريح قلبي إلا بأخذي بثأري منهن، وإني قد نظرت في ذلك فإذا بي لا أقدر على ما رمت: لأني غراب وقد روى عن العلماء أنهم قالوا: من طابت نفسه بأن يحرقها فقد قرب لله أعظم القربان لا يدعو عند ذلك بدعوة إلا استجيب له فإن رأى الملك أن يأمرني فأحرق نفسي وأدعو ربي أن يحولني بوماً فأكون أشد عداوة وأقوى بأساً على الغربان لعلي أنتقم منهنّ!»

لقد نهضت مغالطات الأقوال التي صاغها الغراب الوزير بوظيفتين مجتمعتين أولاهما تبرئة الغراب نفسه ممّا قد يتبادر إلى الذّهن من شكوك في أمره، وقد أمكنه تحقيق هذا التأثير بصوغ القول على نحو

13 نجري مصطلح «مغالطات الأقوال» في معنى **القول الإيهاميّ** الذي يوهم **شبهة من الحقّ وليس هو في الحقيقة كذلك. إنه** ضرب من المواربة والمداراة والالتواء وإقامة الشّبهة وتغيير صور الأشياء ومقاديرها في العيون. وما لم يُجاوز المتلقي المظهر إلى المخبر وينتقل من ظاهر ما ينطق به النّصّ إلى باطن ما يخفيه ويتكتّم عليه كان في مرتبة المنخدع بحيل الكاتب والواقع تحت سلطته. ينظر: ابن الأثير (637 هـ) كتابه **المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر**، تحقيق محمّد محي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، 1990، ص 66

تبريريّ تكثر فيه الأجوبة على أسئلة متوقعة ومنتظرة، مما يمكن إنماؤه إلى تقنية (انتزاع الحجج) أو تجريد الخصم من حججه (Les désarmeurs)

«فسئل الغراب عن أمره فقال: إن ملكنا استشار جماعتنا فيكنَّ: وكنت يومئذٍ بمحضرٍ من الأمر، فقال: أيها الغربان، ما ترون في ذلك؟ فقلت: أيها الملك لا طاقة لنا بقتال البوم: لأنهن أشد بطشاً، وأحد قلباً منَّا ولكن أرى أن نلتمس الصلح، ثم نبذل الفدية في ذلك، فإن قبلت البوم ذلك منّا، وإلا هربنا في البلاد وإذا كان القتال بيننا وبين البوم كان خيراً لهنّ وشراً لنا، فالصلح أفضل من الخصومة وأمرتهنَّ بالرجوع عن الحرب، وضربت لهن الأمثال في ذلك، وقلت لهنّ: إن العدوّ الشديد لا يرد بأسه وغضبه مثل الخضوع له: ألا ترين إلى الحشيش كيف يسلم من عاصف الريح للينه وميله معها حيث مالت فعصينني في ذلك وزعمن أنهن يردن القتال واتهمنني في ما قلت، وقلن إنّك قد مالأت البوم علينا ورددنَ قولي ونصيحتي وعذّبنني بهذا العذاب وتركني الملك وجنوده وارتحل ولا علم لي بهنّ بعد ذلك»

أمّا الوظيفة الثانية **فتتمثّل في طمأنة البوم وانتزاع حسن ظنّه، لاسيّما أنّ الغراب قد عبّر عن** عدائه لبني جنسه من الغربان واستعداده للانتقام منها بل والتضحية في سبيل من أنقذه وآواه وأكرمه جاعلا ذلك من باب التقرّب والطاعة والوفاء.

«أيّها الملك قد علمت ما جرى عليّ من الغربان وأنه لا يستريح قلبي إلا بأخذي بثأري منهن، وإني قد نظرت في ذلك فإذا بي لا أقدر على ما رمت: لأني غراب وقد روى عن العلماء أنهم قالوا: من طابت نفسه بأن يحرقها فقد قرب لله أعظم القربان لا يدعو عند ذلك بدعوة إلا استجيب له فإن رأى الملك أن يأمرني فأحرق نفسي وأدعو ربي أن يحولني بوماً فأكون أشد عداوة وأقوى بأساً على الغربان لعلّي أنتقم منهنّ».

ويتحقّق المقصد التأثيري وتُكلّل هذه الخطّة بالنجاح رغم تحذير وزير البوم منه والتنبيه على مغالطات أقواله، ذلك أنّ ملك البوم «لم يلتفت إلى ذلك القول، ورفق بالغراب ولم يزدد له إلا إكراماً حتى إذا طاب عيشه ونبت ريشه واطلع على ما أراد أن يطلع عليه». وبانكشاف أمر العدوّ تسهل مباغتته. وقد اطّلع الغراب على ما أراد أن يطلع عليه فتحيّن غفلة البوم وراغ روغة فأتى أصحابه. وبهذا الحدث يبدو أنّ الخطّة قد تهيّأت. **ها هنا تكون المباغتة**.

باختراق الغراب مجال الخصم والنّفاذ إلى مواقع القرار فيه أمكنه استكشاف أسراره واستثمار غفلته وترصّد الفرصة لمحاربته. فقد تهيّأت له معرفة دقيقة بالجزئيّات والتّفاصيل ما كانت لتتهيّأ له لولا الاختراق. وقد أتاح له وجوده في مركز القرار أن يترصّد غفلة البوم فيروغ روغة ويأتي أصحابه ليعلمهم ويهيّء طريقة القضاء على الأعداء. وهي طريقة مشروطة بركنين أولهما توفير السلاح المناسب للقضاء على الأعداء وثانيهما ضبط العلاقات بين القائد والأتباع لوعيه بأنّ الأسلحة لا تجدي نفعا متى لم تعضدها قيم تعاملية مهمّة ومؤكّدة تتيح تنفيذ الخطّة على أحسن وجه. من شروط القائد حسن التدبير. ومن شروط الأتباع السمع والطاعة والاجتهاد في التنفيذ. يقول الملك للغراب القائد: «أنا والجند تحت أمرك، فاحتكم كيف

شئت». ويهيّء الغراب، استنادا إلى معرفته بالمكان، اختيار الطريقة المناسبة للقتال والسلاح الأنجع والأقدر على استئصال العدوّ.

وقد أمكن، بتوفّر هذين الركنين، تجميع القوى وتوحيد الصفوف وتنظيم العلاقات وتوفير العتاد المتمثّل في الحطب اليابس والنار يصيبها من الراعي ويلقيها في أنقاب البوم ويقذف عليها من يابس الحطب. وما على الغربان إلا أن تضرب بأجنحتها لتضرم النار وتؤججها. وبهذه الطريقة سُدّت منافذ الخلاص على البوم ولم يبق له إلا أن يختار بين ضربين من الموت: فما خرج منها مات احتراقا وما لم يخرج مات اختناقا.

2-2- المثال المضادّ:

تتأكّد الفكرة المركزية في باب البوم والغربان بطريقتين متكاملتين: تكون أولاها بإظهار مزايا التشاور في أخذ الرأي وفضائل الاحتكام إلى العقل وتكون ثانيتها بإبراز عاقبة التهاون بالرأي والاستبداد بالقرار والانخداع بالظاهر والاستسلام للهوى.وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار ما حصل للبوم مثالا مضادا لما حصل للغربان. فملك البوم –خلافا لملك الغربان- لم يصغ إلى رأي وزيره الأوّل الذي دعا إلى التعجيل بقتل الغراب لإدراكه مبلغ مكر خصمه وقدرته على المخادعة والتضليل. ويتدخّل الوزير المشير بقتل الغراب للمرّة الثالثة ضاربا مثل «**الفأرة التي خيّرت في الأزواج بين الشمس والرّيح والسّحاب والجبل فلم يقع اختيارها إلا على الجرذ**» لإبطال مخادعات أقوال الغراب وكشف تهافتها وإبراز أنّ ما بالطبع لا يتغيّر وأنّ أخلاق المرء تدور معه حيث دار. ولكنّ ملك البوم لم يلتفت إلى قوله بل زاد الأسير إكراما. وبهذا الاختيار، استقوى الغراب الأسير واستطاع اختراق مجال خصمه الاطلاع على ما يجري في دائرة القرار وأمكنه رصد عيوب عدوّه وتدبّر الوسيلة الناجعة للقضاء عليه. وبذلك أطبق الغربان على العدوّ إطباقا وأتيح لهم إهلاك البوم قاطبة، في إبادة جماعيّة أشبه ما تكون بالإبادة العنصرية والجنسيّة.

بدأ البوم منتصرا وانتهى إلى الهلاك. وظهر الغربان أوّل المثال منهزما شرّ هزيمة، في غاية الذلّ والهوان، وانتهى محقّقا نصرا عظيما. احتكم الغربان إلى العقل. واستسلم البوم لسلطان الهوى. يبدو **وضع الغربان مناقضا لوضع البوم غير أنّ الوضعين في الحقيقة متماثلان متكاملان، كأنهما للفكرة الواحدة وجه وقفا، ذلك أنّ من استراتيجيات السارد إظهار الفكرة الواحدة بإيراد المثال والمثال المضادّ** (anti-exemple).ومرجع هذا النهج في السرد إلى أهميّة موضوع سياسية الأعداء .فالحذر من العدوّ مطلب ضروريّ وأمر مهمّ وعليها مدار الباب. وقد رأى ابن المقفع أن يعود إلى موضوع العداوة على نحو مقابل إذ بضدّها تتميّز الأشياء. فركّز على حال الغربان تركيزه على حال البوم قاصدا بذلك جملة من المقاصد لعلّ أهمّها إقناع القارئ بعواقب تصديق العدوّ والاطمئنان إليه من جهة وتهاون الملك المحتكم لهواه الرافض نصائح الحكماء والمشيرين من جهة أخرى. وليست العودة إلى الفكرة وتنويع طرائق التعبير عنها من مميزات هذا الباب إذ هي سمة ثابتة في سائر أبواب كليلة ودمنة. فممّا يميّز هذا الأثر سعي صاحبه إلى تبليغ الحكمة بتنويع طرائق التعبير واستراتيجيات الإقناع والتأثير وذلك سواء بضرب الأمثال وتكثيف

الحكم أو بتضمين الحكايات والمزاوجة بين السّرد والتعليق أو بتقديم الرّأي ونقيضه ترغيبا فيه وتحذيرا من عدم الأخذ به. وهو ما يكشف عنه باب البوم والغربان من خلال تقديم الرأي الواحد في صورتين متقابلتين متكاملتين: صورة ملك الغربان محتكما إلى العقل عاملا برأي النصحاء مكتسبا بذلك القوّة، محقّقا المجد، أمّا الصورة المناقضة فهي صورة ملك البوم متسرّعا متوانيا محتكما إلى الهوى، غير مصغ إلى حكم العقل وأقوال الحكماء.

وعلى هذا النّحو، يصوّر باب البوم والغربان صراعا بين المبدأ والمنفعة، أو هو صراع بين ضربين من القيم: قيم ماديّة قائمة على التماس المنفعة وضمان البقاء، وقيم معنويّة مدارها على قيم الرحمة والتسامح وسائر ما به يكون الإنسان إنسانا. إنّه صراع بين رغبتين: رغبة جعلها ابن المقفّع آتية من جهة العقل الباعث على استئصال العدوّ، ورغبة آتية من جهة العواطف والأهواء الداعية إلى الرأفة والشفقة والعفو عند المقدرة. فإذا القصص الحيواني صورة نمطيّة للصراع بين اللوغوس(Logos) والباتوس(Pathos). وإذا باب البوم والغربان مشروع فكريّ وسلوكيّ ودعوة إلى تحكيم العقل والاستناد إليه في لحلّ معضلات الحياة والوجود وتحذير من سلطان الأهواء المفضي بصاحبه إلى البلاء. وعلى هذا الأساس، وقعت هذه الآراء على درجات متفاوتة من سلّم القيم، ورتّبت تلك القيم ترتيبا تفاضليا يبيّن ضروب سياسة الأعداء (الصفح عن العدوّ، الانتفاع به، التعجيل بقتله)، مثلما يوضحه الرسم التالي:

القيمة الإنسانية – القيمة السياسيّة – القيمة الوجوديّة

(المبادئ والقيم) (المنفعة) (الوجود وتأمين البقاء)

- البقاء أو الفناء (الوجود)
- المنفعة والكسب (الحدود)
- المبادئ والقيم الإنسانية (الخلود)

آراء البوم ونتائجه المتوقعة والواقعة:

وزراء البوم

الأوّل: مثل الناسك الذي نجا من اللص والشيطان حين اختلفا

الثاني: مثل التاجر والسارق وامرأته: مثل الرجل الذي انخدع بالمحال

الثالث: مثل الفأرة التي خيّرت في الأزواج بين الشمس والريح والسحاب والجبل: القضاء عليه (–)

استبقاء العدوّ (الاغترار والانخداع) (+)

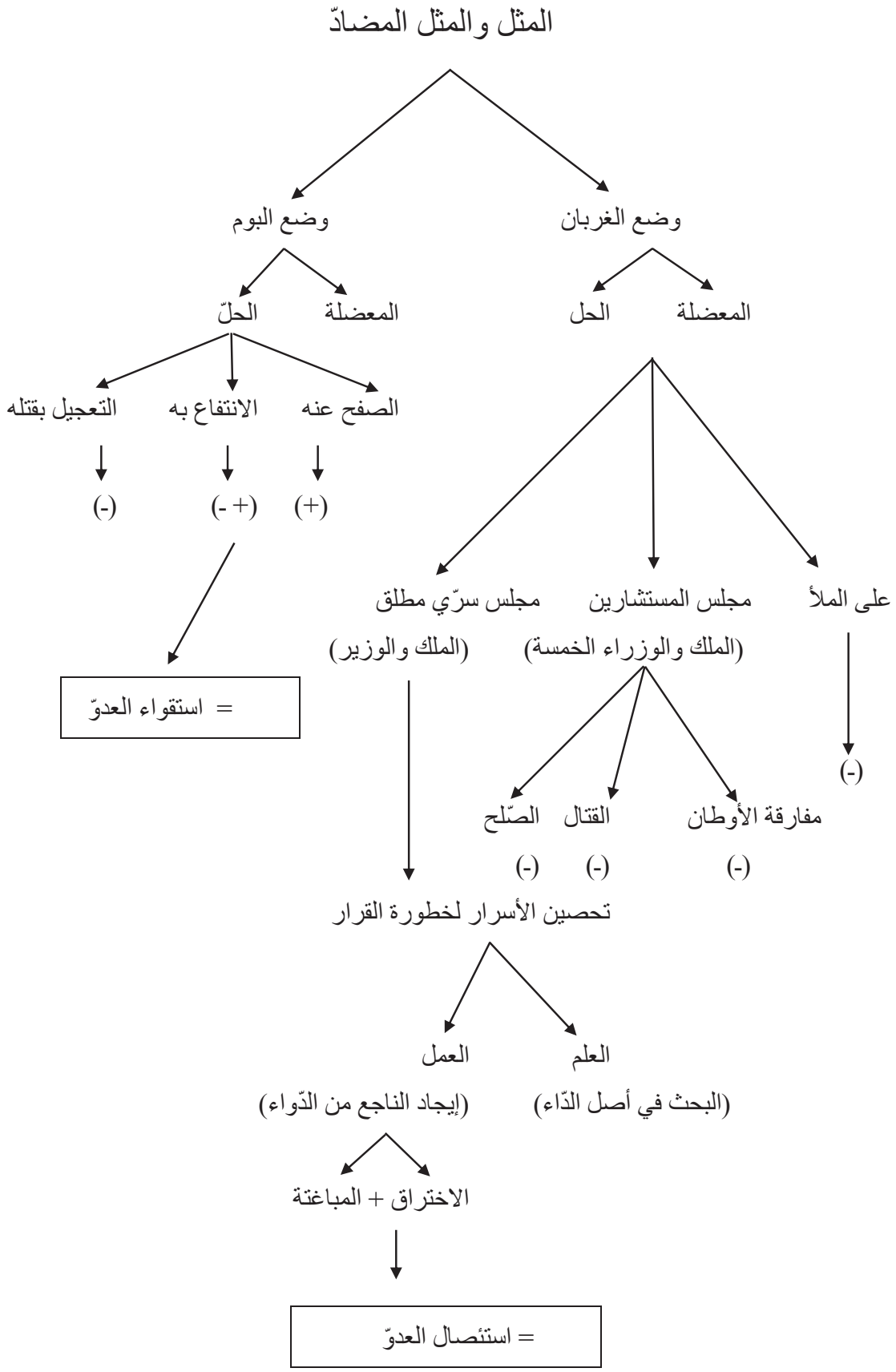
المثل والمثل المضادّ
وضع الغربان
وضع البوم
المعضلة
الحل
المعضلة
الحلّ
الصفح عنه
الانتفاع به
التعجيل بقتله
(+)
(+ -)
(-)
على الملأ
مجلس المستشارين
مجلس سرّي مطلق
(الملك والوزراء الخمسة)
(الملك والوزير)
(-)
مفارقة الأوطان
القتال
الصّلح
(-)
(-)
(-)
= استقواء العدوّ
تحصين الأسرار لخطورة القرار
العلم
العمل
(البحث في أصل الدّاء)
(إيجاد الناجع من الدّواء)
الاختراق + المباغتة
= استئصال العدوّ

هكذا بُني باب البوم والغربان بناء تقابليا باعتماد معيار الفضاء وحدود الإفضاء: ابتدأ كلاما على الملأ يجري في محفل عامّ، ثمّ ضاقت دائرة التقبل فصار كلاما يجري بين الملك ووزرائه الخمسة من المستشارين، وانتهى مجلسا سريا مغلقا ليس فيه غير طرفين هما الملك والوزير الواعد بحلّ معضلة الغربان. وبانتقال الكلام من الفضاء المفتوح إلى الفضاء المغلق فإلى المكان الأكثر سريّة يتغيّر مسار الأحداث في الحكاية على نحو يكون الانتقال فيه من الضدّ إلى الضدّ: مسار أوّل - هو مسار الغربان- ينطلق من وضع ضعف ونقص وافتقار واختلال وإحساس عميق بالذلّ والهوان وينتهي بامتلاك القوّة والمجد واستئصال الخصم استئصالا، ومسار ثان – هو مسار البوم- ينطلق من وضع القوّة والنّصر والظّفر بالعدوّ وإلحاق الأذى به وينتهي بهلاك هذا الجنس قاطبة.

وما بين البداية والنهاية عُرضت مواقف وآراء، واستُدعيت حكم وأمثال، واقتُرحت حلول لم تكن في حقيقتها حلولا لأنّ مؤلّف الكتاب قد وجّه الحكاية منذ البداية وجهة الإقناع بأنّ من أنواع العداوات ضربا يُدعى فيه العاقل إلى اتّقاء عدوّه والتحفّظ منه واستعظامه ومصانعته قصد مخادعته وإظهار الودّ له دون ائتمانه على نفسه وتوظيف جميع الوسائل للقضاء عليه واستئصاله إن أمكن. وهي فكرة خطيرة لأنّ مجال الاختلاف فيها جوهريّ ولأنّ الصّراع فيها يتعلّق بشرط الوجود لا برسم الحدود.

إنّ الحرب سياسة تقتضي التلطف والتمرّن وقوّة الحيلة احتراسا من الحرب أن تنعكس على صاحبها، وتغييرا لمسارها متى تفطّن العدوّ إليه، واستعدادا لها إذا خاض غمارها، وضبطا لطرق التخلّص منها إن هي فاضت عن حدودها. وعلى هذا الأساس تتعدّد ركائزها ومقوماتها. من هذه الركائز الإخفاء وهو أساس مراعاة سلامة الخطّة وحراستها من الانكشاف والضياع ويكون بصون الأخبار عن العدوّ وحجبها عن كلّ من لم تُختبر حاله وتصفو نيّته وسترها عمّن لا يوثق به بل إنّ **أوهن الأعداء كيدا أظهرهم لعداوته**. ومنها الاستعلام وهو بذل الحيلة والجهد في سبيل معرفة حال العدوّ وعدم إغفال أمره وذلك بمراقبته وتفقدّه والتجسّس عليه في كلّ ساعة لئلاّ يقوى «فيمتدّ باعُه ويطول ذراعه وتكبُر شكيمته وتشتدّ شوكته ويعضل داؤه ويعجز دواؤه». ومنها الاستمالة وتكون ببذل المال العظيم إغراء واستدراجا وتحريضا للعدوّ بعضه على بعض وزرعا لبذور الفتنة والشّقاق بينهم حتى يكذّب الرّجل يمناه بيسراه. ومنها تعطيل حركته ونثر العوائق في طريقه إمّا بقطع المياه أو هدم القناطر والجسور أو إحراق الأمكنة أو قذفه بالنّار وغيرها ممّا يدخل ضمن الباب. وعادة ما تكون الحرب آخر الحيل مثلما يكون الكيّ آخر الدّواء، فالنفقة فيها من النفوس وفي غيرها من الأموال. وإن تفد الحيلة تغنم الأموال وتحقن الدّماء.

وفي مصنّفات الأدباء والمؤرخين وسائر المفكرين الذين كتبوا للسلطان أو كتبوا عن العلاقات بين البلدان، رؤى وتصورات عديدة في التعامل مع الأعداء. ففي تهذيب الرياسة وترتيب السياسة فصل في من ابتلي بعدو كيف يعمل، وفصل في العدو الذي لا يرجى صلاحه وكيفية العمل معه، وفصل في أهمية الحزم والنظر في العواقب، وفصل في انتهاز الفرصة من العدو[14]

وخلاصة ما ينتهي إليه دارس هذه الفصول أنّ الملك «يبني أمره مع عدوّه على أربعة أوجه على اللين والبذل والكيد والمكاشفة. ومثل ذلك مثل الخُرّاج أوّل علاجه التمكين، فإن لم ينفع فالإنضاج والتحليل وإن لم ينفع فالضِّماد، فإن لم ينفع فالكيّ وهو آخر العلاج». أمّا ابن المقفّع فيرى أنّ العدوّ إذا استحال إصلاحه بالبذل واللّين وجبت مواجهته بالحيلة والإسراع إلى استئصاله بالكيد المبين. وهذه الركائز تتحقّق مجتمعة لتقطع دابر العدوّ قبل أن يستفحل داؤه ويعضل دواؤه فيعسر تداركه وتلافيه.

3- تطوير المثال:

للمثال وتقنية المماثلة (analogie) أهمية بالغة في الاحتجاج وتقوية الإقناع وقيادة الفكر وتوجيهه نحو ما يُراد له بالرغم من موقف التحفظ والحذر الذي يبديه بعض الفلاسفة والمفكرين حجتهم في ذلك أنّ المثال ضرب من التفكير ضعيف ونتائجه مشكوك فيها وأنّ قيمتها لا تجاوز صوغ فرضية تثبت أو تبطل بالاستقراء. ثمّ إنّ القوة الإقناعية للمماثلة لا تستمدّ من ذاتها بطريقة استنتاجية (أ=ب، ب=ج، أ=ج) بل تتولد من علاقة التشابه الحاصلة بين (أ –ب) في علاقتها بـ (ج-د)، بين الممثَّل والممثّل به الذي يُفترض أن يكون أشهر من الممثّل وأقدر على إبانة وجه التماثل وتأكيده. وكثيرا ما تقتضي الإبانةُ تطويرَ المثال. والتطوير إثباتٌ لقوّة المثال، وإظهارٌ لصدقه، وتأكيدٌ لنجاعته وجدواه. وهو في حقيقته إكساب المثال قوة حجاجية بها يُستدرج المتلقي إلى ما يُقترح عليه فإمّا قبولا وإذعانا، وإمّا رفضا واعتراضا، وفي الحالين معا، لا يبقى المتلقي بريئا محايدا.[15]

ويتمّ تطوير المثال بطرائق عديدة يعسر حصرها لتنوعها واختلافها باختلاف الأجناس والآثار والموضوعات والمقامات وبحسب كفاءات المتلقين. ومن أشهر طرائق التطوير في كليلة ودمنة التوليد والتضمين، وبسط الكلام، والإلمام بالعناصر، والعناية بالتفاصيل، والمزاوجة بين السّرد والتعليق.

---

14 القلعي، (الإمام أبو عبدالله بن محمد ت 630 هـ) **تهذيب الرياسة وترتيب السياسة**، تحقيق إبراهيم يوسف مصطفى عجو، مكتبة المنار الأردن، الزرقاء، الطبعة الأولى 1985 انظر ترتيبا الصفحات التالية: ص 229، ص 233، ص 236، ص 240

15 ينظر: Perelman (C.) et Tyteca (L.O.), *Traité de l'argumentation*, P.U.F., 1958 في المواضع التالية:
ص 499 (أهمية المماثلة) وص 500 (قيمة المماثلة) ص 511 (في الممثل Thème والممثل به Phore وص 513-512، (تأثير المماثلة) ص 518 (تقوية الإقناع conviction une renforcer) ص 520 - 521 (نقض المماثلة وإعادة النظر فيها لتصحيحها) وص ص 527 -532 (اختلاف المماثلة باختلاف العصور والتيارات الفلسفية والفكرية) ومن أهمّ ما ذكره برلمان في شأن بيان المثال وتطوير المماثلة:
Développer une analogie c'est parfois confirmer sa validité ,c'est aussi s'exposer aux coups de l'interlocuteur(…) c'est le prolongement de l'analogie qui a ici valeur argumentative et permet de formuler une objection aux vues empiristes .P519

3-1- التوليد والتوزيع:

ليس المثال البسيط مثل المثال المركب الذي تتناسل من صلبه أمثلة تجري في نطاقه وتعود إليه. وليس المثال الوجيز الذي يسرع إلى تقديم الحكمة والعبرة على نحو توجز فيه الأوصاف ويقع التركيز على الوظائف الركنية مثل المثال الذي يحتفي بالأشياء ويفصّل صور الأحياء ويُجري بينهم الحوار ويبثّ فيهم الحركة والحياة. فان نطوّر المثال هو في الحقيقة أن نكسبه قوة حجاجية ونجعله أقدر على الإقناع والتأثير. وعلى هذا الأساس تمايزت الأمثال في باب البوم والغربان توزيعا، وتفاوتت كثافة وقوة تأثيرية.

كل ذي رأي، من الغربان والبوم، دعّم رأيه ببليغ الحكم ومأثور الأقوال، وقدّم من الحجج والأمثلة ما يبدو مقنعا ومعقولا. وقد تولّدت من مثل البوم والغربان تسعة أمثلة:

- وردت **ثلاثة** منها على لسان الغراب الوزير. كان أوّلها، وهو «**مثل الغراب والكراكيّ**»، في بداية النصّ في سياق البحث عن أصل ابتداء العداوة بين البوم والغربان. وورد ثانيها في سياق الدّعوة إلى إعمال الرأي والحيلة لإصابة الحاجة بالرّفق واللّين «**مثل الجماعة الذين ظفروا بالناسك وأخذوا عريضه**». وكان ثالثها آخر النصّ عندما سئل ملك الغربان الغراب الوزير عن صبر الأخيار على الأشرار وقبول الكرام حكم اللئام «**مثل الأسود وملك الضفادع**». فبدا المثال طريقة تفكير. وفي كثرة ضرب الأمثال ما يعضد القوّة التأثيريّة لاسيما إذا اعتبرنا طبيعة المخاطب وجنس الخطاب.

- ومن أمثلة الباب **مثلان** وردا على لسان الغراب المحدث للفتنة المتسبب في هلاك الغربان (غير الغراب الوزير المستشار) خاطب بهما الكراكيّ لثنيها عن رأيها في تمليك البوم عليها وهما «**مثل الأرنب التي زعمت أنّ القمر ملكها**» و«**مثل الأرنب والصفرد حين احتكما إلى السنور**». وقد استطاع بالمثال تغيير الاقتناعات.

- وورد **مثلان** على لساني وزيرين من وزراء البوم في سياق الدّعوة إلى استبقاء الغراب إمّا صفحا عنه في «**مثل الناسك الذي نجا من اللّص والشّيطان حين اختلفا**» وإمّا انتفاعا به في «**مثل التّاجر الذي عطف على سارق لاصطلاحه مع امرأته بسببه**». وقد نجح كلاهما في إقناع ملك البوم بضرورة استبقاء الغراب الأسير.

- ويقابل هذين المثلين **مثلان** آخران وردا على لسان وزير البوم الذي دعا إلى التعجيل بقتل العدوّ عند الظّفر به. استدلّ بالمثلين في سياق تحذير البوم من مخادعات الأحوال وهما «**مثل الرجل الذي انخدع بالمحال يكذّب ما يرى ويصدّق ما يسمع فينخدع بالمحال**» و«**مثل الفأرة التي خيّرت في الأزواج بين الشمس والريح والسحاب والجبل**» ضربهما للتنبيه على ما صدر من الغراب من مغالطات الأقوال وللدعوة إلى عدم الاغترار بمخادعات الأحوال. غير أنّ المثالين – على إحكام صياغتهما ومبلغ بيانهما وقوّتهما

التأثيريّة – لم يحقّقا الغاية التي من أجلها ضُربا، إذ لم يجدا من ملك البوم أذنا صاغية وقلبا واعيا ونفسا حازمة ومحترسة.

وتخضع هذه الأمثلة لبناء واحد قوامه إيراد الرّأي أو الفكرة وإرفاقها بالمثال حجّةً عليه، غير أنّها تختلف من جهة الأعمال المتحققة بالقول. فقد استطاع غراب الحكاية إقناع الكراكيّ فعدلت عن تمليك البوم، واستطاع الغراب الوزير المستشار إقناع الملك برأيه، واستطاع وزيرا البوم إقناع الملك باستبقاء الغراب العدوّ والصفح عنه.

وفي المقابل نجد أربعة من وزراء ملك الغربان الخمسة يقترحون حلولا (الصّلح أو القتال أو مفارقة الأوطان) لم نجد لها في مسار الحكاية صدى وتأثيرا، بل قُدّمت للرفض وذُكرت للإبطال، لسببين على الأقلّ، أوّلهما تأنّي الملك في أخذ القرار وحرصه على معرفة بقيّة الآراء، وثانيهما نهوض خامس وزرائه بنقدها والاعتراض عليها اعتراضا صريحا وضمنيّا أقنعه فيه بقوّة الردّ.

ومن الأمثلة القويّة الصّياغة العديمة التأثير ما أورده وزير البوم الذي أشار على الملك بقتل العدوّ عند الظفر به اتقاء لشرّه وسدّا لمنافذ الحيلة لديه. ولا يُعزى فشله إلى ضعف المثل صياغةً أو فكرةً أو مشروعاً، وإنّما يرجع إلى خطّة في السّرد أساسها إظهار الفكرة المركزيّة التي عليها مدار النصّ بطريقتين متقابلتين تقوم الأولى على إظهار منافع من يعمل بالرّأي ويحتكم إلى العقل، وتقوم ثانيتهما على بيان مصير من احتكم إلى العواطف والأهواء واغترّ بظاهر الأحوال والأقوال. وبذلك يقترن العقل بالخير والأمن والتفوق، وتقترن الأهواء بفساد الرأي وعقم السياسة وسوء المصير.

ومن خلال هذا التوزيع نتبيّن أنّ الأمثلة تتفاوت قوّة تأثيريّة، وأنّ مرجع هذا التفاوت لا يُعزى إلى ضعف الصّياغة أو عدم كفاية الحجّة، وإنّما يُعزى أساسا إلى الفكرة المركزية التي قام عليها الباب ووظّفت سائر العناصر لإجلائها وتأكيدها. بل يمكننا القول على سبيل الافتراض إنّ باب البوم والغربان لو قام على فكرة التعامل مع الأعداء والصفح عنهم لسارت الأحداث فيه نحو تحقيق هذه الغاية وإظهار هذه الفكرة. ولكنّ الأمثال محكومة بمقاصد صاحبها منها. **وضارب الأمثال الخرافيّة – وهي مخترعة- يمكن أن يضرب المثال ونقيضه لدعم فكرة أو دحضها.** فهو من هذه الجهة مدفوع بالمنفعة، غير مؤتمن على الحقيقة. والشواهد على ذلك وافرة لعلّ أشهرها المثال الذي احتجّ به إيسوب لتبرئة أحد الحكّام الطغاة ممّن احتجن المال العامّ وأفلس الخزينة. ففي الوقت الذي توافقت فيه الحشود على إعدامه لمبلغ فساده، يضرب إيسوب مثل الثعلب والقنفذ والقراد. ومدار هذا المثل على ثعلب أراد أن يعبر نهرا فسقط في أخدود عميق وفشلت محاولاته في الخروج منه بل أضحى عرضة لألوان العذاب التي كان عليه أن يتحمّلها، لاسيّما من سرب القراد الذي حطّ عليه وتخلّل جسمه وأخذ يمتصّ دمه. ومرّ به قنفذ فأسف شديدا لوضع الثعلب، فسأله أيقوم بالتقاط القراد؟ لكنّ الثعلب أجاب «كلا» فقال القنفذ: «ولم لا؟» فأجاب «لأنّها قد نالت مني بالفعل وجبة دسمة، ولن تريد

الآن مزيدا من مصّ الدّم، لكنّك إن أبعدتها عن جسدي، سيأتي سرب آخر جائع تماما ليشرب كل نقطة من دمي». ثم قال إيسوب: «هذا هو موقفي معكم يا شعب ساموس، هذا الرجل لن يضرّكم أكثر من ذلك، لأنّه أصبح غنيّا، لكنكم لو قتلتموه فسوف يأتي غيره، ممّن لا يزال جائعا، يظلّ يسرق ويغرف من خزائنكم حتى يأتي عليها».

ولعلنا ها هنا نفهم اعتراض أبي سليمان المنطقي على بعض وجوه توظيف الأمثال انطلاقا من قول أفلاطون (من يصحب السلطان فلا يجزع من قسوته، كما لا يجزع الغوّاص من ملوحة البحر). فكان من ردّه أنّ (هذا كلام ضرّه أكثر من نفعه، وإنّما نفّقه صاحبه بالمثال، والمثالُ يستجيب للحقّ كما يستجيب للباطل، والمعوّل على ما ثبت بالدّليل لا على ما يُدّعى بالتّمثيل)[16].

3-2- المزاوجة بين السّرد والتعليق:

ينتهي الحكاية بهلاك البوم وانتصار الغربان. غير أنّ السّارد، لأسباب تعليمية، يواصل نشر الفكرة وإظهار الحكمة وضرب الأمثال يُستدرج إليها بالسّؤال. والسؤال الوارد في خاتمة الباب غير السؤال الوارد في فاتحته. فالسؤال الافتتاحي «كيف ذلك؟» سؤال استخباري يستدعي السرد ويهيء له ويعلن عن انتقال الكلام من طور التّنظير والتّجريد إلى طور التّمثيل والتّجسيد وما يترتّب عليه من تغيير في مقامات التخاطب وفي طبقات الكلام. أمّا السؤال الختامي فاعتباري يستثير الذهن وينبه العقل ويوجّه اهتمام القارئ إلى موضوع مثير ويدعوه إلى تأمّل الظواهر وتدبّرها وتقويم الفعل الإنسانيّ استنادا إلى العقل. والغرض منه عموما استخلاص العبرة واستصفاء الحكمة. وعلى هذا الأساس يمكن إنماء هذا الضّرب من الأسئلة إلى جنس السؤال الفلسفيّ الباعث على التفكير.

وفي هذا السّياق تتنزّل جملة من الأسئلة ألقاها ملك الغربان على الغراب الوزير الذي اقتدر على إهلاك العدوّ. منها أسئلة ثلاثة يتعلّق أوّلها بصبر الأخيار على الأشرار، ويدور ثانيها على حكم العقل وحكم الهوى، ويتّصل ثالثها بطرائق الإبلاغ الممكنة عندما يستحيل إرسال القول وتقديم النّصح على وجه التصريح والإجلاء.

3-2-1- صبر الأخيار على الأشرار:

يسأل الملك وزيره: «**كيف صبرت على صحبة البوم ولا صبر للأخيار على صحبة الأشرار؟**»

ما فتئ ابن المقفع في سائر ما أنشأ من حكم وأمثال يدعو إلى تهذيب النفس وتأديبها. ومن وجوه التأديب انتقاء الأصدقاء بمعاشرة الأخيار ومفارقة الأشرار. ولكنّ الدّهر قلّب يعلو بالعبيد الأوضاع ويسفّل بالبطارقة الكبار. ومتى انقلب حكّم اللئيم في الكريم وأكره الرّفيع على مصاحبة الوضيع. ومن نكده على الحرّ أن

16 التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، الليلة السابعة عشرة: ص 191

يرى «عدوّا له ما من صداقته بدّ». ها هنا يُعاد ترتيب القيم في ضوء النتائج التي تُحقّقها محتكمة إلى معيار النفع العظيم والخير الكثير، فإنّما تُقاس الأمور في ضوء ما تُحقّقه من منافع. وقد أمكن للغراب إهلاك العدوّ وتحصيل الأمن والظفر. ويجيب الوزير ضاربا مثل الأسود الذي صبر على حمل ملك الضفادع على ظهره. والحكمة فيها ضرورة احتمال المشقّة لتحصيل المنفعة. هو ضرب من الخضوع لا يضرّ صاحبه وإنّما يضمن له نفعا ويحصّل به رزقا ومعيشة بل ويجعله يقف موقف الساخر من تصاريف القدر منتصرا عليها بالفعل. إنّها فلسفة في الحياة واختيار مبدئيّ قائم على وعي عميق بأنّ «صرعة اللين والرفق أسرع وأشد استئصالاً للعدو من صرعة المكابرة».

3-2-2- العقل والهوى:

يسأل الملك وزيره: **أخبرني عن عقول البوم؟**

على هذا السؤال قُدّمت إجابتان: إجابة الغراب بقوله إنّه «لم يجد فيهن عاقلاً» مستثنيا الوزير الذي حرّض على قتله مرارا. فمرجع ضعف الرأي في نظره إلى ثلاثة أشياء: أوّلها حسن الظنّ الباعث على الطمأنينة، وثانيها كشف الأسرار المفضي إلى عدم تحصين النفس من نوازل المكروه، وثالثها عدم الاعتبار بالماضي المفضي إلى الوقوع في الخطأ الواحد مرتين بل مرارا. فلو نظر البوم في وضع الغراب واعتبر منزلته لدى الملك وقدّر ذكاءه ومبلغ حيلته وأمن مكره لما انتهى إلى المصير الذي آل إليه. فالعقل ينجد صاحبه متى استنجده. وفي جواب الملك ما يدعم جواب الوزير ويؤكّده ويضيف إليه. يرجع الملك هلاك البوم إلى «الغيّ» و«ضعف رأي ملكها» وإلى «وزراء السّوء». فقال الملك: ما أهلك البوم في نفسي إلا الغي، وضعف رأي الملك وموافقته وزراء السوء: «فقال الغراب: صدقت أيها الملك، إنه قلما ظفر أحد بغنىً ولم يطع، وقلّ من أكثر من الطعام إلا مرض. وقلّ من وثق بوزراء السوء وسلم من أن يقع في المهالك وكان يقال: لا يطمعنّ ذو الكبر في حسن الثناء، ولا الخبُّ في كثرة الصديق، ولا السيئ الأدب في الشرف، ولا الشحيح في البرّ، ولا الحريص في قلة الذنوب ولا الملك المحتال، المتهاون بالأمور، الضعيف الوزراء في ثبات ملكه، وصلاح رعيّته».

3-2-3- ضرب الأمثال بديلا عن حقيقة الحال:

يسأل الملك وزيره: وأي خصلة رأيت منه [الوزير المشير بقتل الغراب] كانت أدلّ على عقله؟ ويجيب الوزير: «خلّتان: إحداهما رأيه في قتلي والأخرى أنه لم يكتم صاحبه نصيحته وإن استقلها ولم يكن كلامه كلام عنف وقسوة ولكنه كلام رفق ولين حتى إنه ربما أخبره ببعض عيوبه ولا يصرح بحقيقة الحال بل يضرب له الأمثال..»

هذا ضرب من الكلام على المثال يتخلّل المثال المسرّد، ويدور على طريقة من طرائق التأدّب تهدف إلى تبصير المرء بعيوبه وذلك بذكر عيوب غيره على نحو ينطبق عليه المثل القائل: «إيّاك أعني واسمعي

يا جارة» وكثيرا ما تجدي هذه الطريقة في مخاطبة الملوك الذين يرون النّصح لهم تقليلا من هيبتهم والنّقدَ الموجّه إليهم تطاولا عليهم يورث الغضب ويُنزل بالنّاصح أشدّ العقاب. والمثال، بهذا المعنى، ذو قدرة خارقة على تبليغ الفكرة وتأمين التواصل وحماية القائل من خطورة القول. ومن شأن هذه الخصائص أن تضاعف من قوته التأثيرية لمراعاته مشاعر المخاطب وقدرته على الإخفاء والتّعبير عن حقيقة الحال في آن معا.

وبالمزاوجة بين السّرد والتّعليق، تتأكّد أهمية الفكرة في المثال، ويُستدرج المتلقي بالسؤال فيُدعى إلى تعميق النّظر في الحكمة وتبيّن ما أخفته الأمثال لفهم حقيقة الحال.

4- حكمة المثال: مبدأ الإخفاء في سياسة الأعداء

في باب البوم والغربان مشروع فكريّ سياسيّ قوامه ركيزتان: أولاهما **الاختراق** المشروط **بالإخفاء** الموجب **لمغالطات الأحوال والأقوال، وثانيتهما المباغتة** المشروطة برصد الغفلة وانتهاز الفرصة، الساعية إلى سدّ المنافذ، الهادفة إلى الاستئصال.

من دوافع اختيار هذا المشروع الاقتناع بأنّ «أحوال الناس وأحوال الأمم دول فيوم لك ويوم عليك. وهذه الفكرة تبرّر قبول الوضع. والقانون المتحكم في التاريخ واحد. وهذه الفكرة تولّد من حنايا الاستقرار والهزيمة ومضة الأمل في عودة الأحوال إلى صورتها الأولى»[17]

وعندما ننتقل من المثل إلى الحكمة ونخرج من خيال الحيوان إلى واقع الإنسان وننظر في مقام القراءة موصولا بمقام الكتابة والتأليف تنكشف تدريجيا العلاقات القائمة بين نظام النصّ والنظم المحيطة به. وهو ما أشار إليه محمّد القاضي في معرض تحليله نصّا سرديّا من باب البوم والغربان هو «مثل الأسود وملك الضفادع». وقف القاضي في تحليله المستوى الدّلاليّ للنصّ على الأبعاد الأدبيّة والسياسيّة والاقتصاديّة ليختم بقراءة حضاريّة لها في عالم النصّ وفي واقع التاريخ ما يجوّزها.[18]

وتستوقفنا القراءة الحضاريّة من جهة الجدل القائم بين العنصرين العربيّ والفارسيّ. فابن المقفّع «رجل ينتمي إلى أمّة مغلوبة يغيّر انتماءه إلى الأمّة الغالبة، ثمّ ينقل من أمّته القديمة هذا الكتاب إلى أمّته الجديدة. والنصّ ينضح بهذا الواقع جيئة وذهابا. فهو في لغة الغالب ظاهره نصح له وتثبيت لأقدامه، ولكنّه من أصل فارسيّ باطنه تهكّم وتحيّل وخداع»[19]

ومثلما استطاع الأسود أن يعيش بين الضّفادع استطاع الفارسيّ العيش في حضارة العرب مؤدّيا ضريبة محيّرة هي ضريبة الرّكوب. فالمجد السياسيّ والعسكريّ كان للعرب، والمجد الفكريّ والإداريّ والتنظيميّ

17 ابن المقفع، كليلة ودمنة، القاهرة المطبعة الأميرية ببولاق 1937 باب البوم والغربان ص 231 الباب: ص ص 200-231

18 محمد القاضي، **تحليل النص السردي**، دار الجنوب للنشر تونس 1997 ص 74

19 **المرجع نفسه** والصّفحة نفسها.

كان من قبل للفرس. هنا يتساءل القاضي على وجه الإثبات والتقرير: «أفليس الأسود الذي كبر وهرم إلا بلاد فارس التي شاخ سلطانها؟ وهل ملك الضفادع إلا السلطان العربيّ... أعوزته القوّة ولكن ما أعوزته الحيلة»[20]

ويتّسع السؤال ليشمل القيم التعامليّة والمرجعيات التي إليها تستند: ما هي القيم التي تحدّد مراتب الإنسان وفي ضوئها يُعرف الرّاكب من المركوب: الفارسي **بحيلته** وقد أعوزته القوّة فآثر القيم الماديّة التي تضمن له البقاء أم العربيّ **بقوّته** (وعنجهيّته) وهو، من منظور الفارسيّ، مضحوك عليه يتباهى بمجد زائف وبقيم معنوية ما عادت في سوق العصر نافقة؟

ومن صلب هذا السّؤال يتولّد سؤال ثانٍ مداره على المعنيّ الحقيقيّ بالأثر والمخاطَب المقصود بالنصائح والحكم: قدّم ابن المقفّع في سائر مؤلفاته -الموضوع منها والمنقول- حكما ونصائح عديدة كثيرا ما عادت في صيغ تعبيريّة متنوّعة. فهل قصد بها الإنسان في مطلق الزمان والمكان إفادة وتكوينا وتعليما أم وجّهها إلى العربيّ الذي هو حديث عهد بالسلطة تنبيها وتذكيرا وتحقيرا أم خصّ بها الفرس مؤاساة وتهوينا واقتناعا بأنّ الدّهر يومان يوم هزيمة تُسلب فيه الأمجاد ويوم نصر يردّ فيه الدّهر أضعاف ما استلب؟ أو لا تكون هذه المؤلفات رسالة سريّة على نحو ما يفعل أصحاب الحركات الباطنيّة في إلغازهم وتكتّمهم وتخاطبهم بلغة لا يفهمها إلاّ من ظفر بشفرتها من الأنصار الأصفياء؟

هكذا يبدو الإخفاء، في باب البوم والغربان، وفي سائر أبواب كليلة ودمنة، **استراتيجيّة خطابيّة** بها يدرك القائل ما عزّ بالتصريح إدراكُه، **وموقفا فكريّا** يرى الإنسان في الحياة أحوج ما يكون إلى الكتمان

20 **المرجع نفسه** والصّفحة نفسها.

والمداراة، **ومبدأ وجوديّا** يضمن بقاء الإنسان ويحصّنه من نوازل المكروه، فضلا عن كونه **مطلبا فنّيا**[21] يحقّق المتعة ويضمن للقول نجاعته، فإنّ الكلام (إذا جُعل مثلا، كان ذلك أوضح للمنطق وأبين في المعنى وآنق للسمع وأوسع لشعوب الحديث).[22]

وليس للإخفاء مفهوم واحد ولا وظيفة واحدة ولا له طريقة في التعبير مخصوصة ولا هو منحصر في شكل من الأشكال. إنّه في أدب ابن المقفع وسيلة تعبير وطريقة تفكير ومسلك في الحياة واختيار يوجبه الحرص على بقاء الذات وخطّة لاستعادة ما سُلب من الأمجاد. فيه قرائن معلومة يدركها القارئ بيسر من قبيل ضرب الأمثال للإيحاء بحقيقة الحال، واتخاذ الحيوان بديلا من الإنسان ودليلا عليه، وإرسال الكلام مغلّفا بالرّمز، واعتماد الأقيسة المضمرة، وعرض المقدمات اللازمة لاستخلاص النتيجة على نحو يُدعى فيه القارئ إلى خوض تجربة البحث عن المعنى لاكتشاف المجهول انطلاقا من المعلوم وتعلّم مفاهيم نظرية جديدة انطلاقا من تجربة معيشيّة معروفة.

---

21 للإخفاء منزلة مهمّة في المقدمات الأربع التي عُدّت (أمّ الكتاب). وهي مقدّمات تحكي قصّة الحكمة **إنشاء وتكوينا** في باب مقدّمة الكتاب، مقدّمة بَهنود بن سحوان ويُعرف بعليّ بن الشّاه الفارسيّ، **وطلبا وتحصيلا** في باب بعثة برزويه إلى بلاد الهند، **وانتقاء وتفضيلا** في باب برزويه ترجمة بزرجمهر بن البختكان، **واستفادة وتعليما** في باب غرض الكتاب لابن المقفع. وخلاصة ما ينتهي إليه قارئ هذه المقدمات هو أنّ الفعل العظيم لا يجدي نفعا ولا يقي صاحبه موارد الهلكة حتّى يُصان ويُكتم. فعلى قدر خطورة الفعل وعظمة المقصد يكون الإخفاء والكتمان. وقد نشأ كليلة ودمنة، كتابا تكتنفه الأسرار ويحيط به الغموض وتلفّه هالة من التعظيم والتفخيم وما ذاك إلا لتعدّد منافعه وقدرته على تحقيق العصيّ من المقاصد وإدراك العسير من الغايات. وفي **باب غرض الكتاب** لابن المقفع ما يضاعف من قوّة الإخفاء ويغرق الكتاب في أجواء الكتمان والأسرار. ولذلك كلّه صلة بالحيلة التي عليها مدار الكتاب. يحدّثنا ابن المقفّع عن حيل العلماء في استحداث طرائق تبليغ الحكمة وإظهار ما لديهم من العلوم منتهيا بنا إلى الطريقة التي رآها أنجع وأقدر لنشرها الحكم على أفواه البهائم والطّير. وهي طريقة أتاح للعلماء أن يسلكوا شعاب القول وينهجوا مسالكه وفنونه مؤنسين بها قلوب الملوك بصنوف الخيالات، مستميلين بها أهل الهزل من الشّبّان فضلا عمّا في رواج الكتاب وانتشاره من نفع يناله النّاسخون. وعلى أهميّة هذا الأغراض فإنّ الغرض الرابع اقتضى الإخفاء لحكمة لا يدركها إلاّ الفلاسفة والحكماء. وإذا كان من شأن الإخفاء أن يعطّل تبليغ الحكمة، فإنّ من شأن كشف الحكمة والبوح بها أن يذهب بنفعها. لذلك ينبّه ابن المقفّع على أهميّة الإخفاء ويكثّف الحكم ويورد الحكايات والأمثال راسما للقارئ سبل الانتفاع بالكتاب داعيا إيّاه إلى تدبّر «الوجوه التي وُضعت له والرّموز التي رُمزت فيه وإلى أيّ غاية جرى مؤلّفه فيه عندما نسبه إلى البهائم وأضافه إلى غير مفصحٍ وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثالا.. ». نتبيّن هذا في مثل الحمّالين والرّجل الذي أصاب كنزا، ومثل الصيّاد والصّدفة، ومثل الجوز لا ينتفع به الرّجل إلا أن يكسره ويستخرج ما فيه، ومثل طالب العلم والصحيفة الصفراء. ولا تكتمل القراءة ويتحقّق النّفع حتى يوصل العلم بالعمل لئلا يكون مثل العاقل الذي اهتدى إلى الحكمة ولم يعمل بها كمثل الرجل الذي تفطّن إلى السارق ثمّ أخذه النعاس فأتى السّارق على جميع ما في البيت. والصّور التمثيليّة عديدة منها صورة الأعمى والبصير، إذا ما سقطا في الحفرة فإنّ اللوم يقع على البصير لعدم انتفاعه بحاسّة البصر. فجدير بالمرء، في نظر ابن المقفّع، أن ينتفع بالكتاب ويؤدّب به نفسه قبل أن يؤدّب غيره، لئلا يكون مثل العين التي يشرب الناس ماءها وليس لها في ذلك شيء من المنفعة أو مثل دودة القزّ التي تحكم نسجه وصنعته ولا تنتفع به. وعلى هذا الأساس كان للإخفاء في المقدّمات الأربع وظيفتان مهمّتان: أولاهما إغرائيّة، ذلك أنّ القارئ عندما ينتهي من قراءة المقدّمات الأربع لا يشكّ إطلاقا في أنّ كتابا تُبذل في سبيله ما في خزائن الملوك ويلبس محصّله التاج تكريما ويجلس على كرسيّ العرش تقديرا لكتاب جدير بأن يُقرأ ويُطّلع عليه ويُعرف ما فيه. فكلّ ممنوع هو أشهى إلى النفس من المبذول وأوقع أثرا. والنفوس توّاقة إلى العلم المضنون به على غير أهله. أمّا الوظيفة فمنهجيّة توجيهيّة: ومدارها على طبقات القراءة وصنوف القرّاء. وهي في ما يُستخلص من باب غرض الكتاب قراءتان: قراءة يطلب صاحبها متعة وأنسا، وقراءة ينشد صاحبها حقيقة وانتفاعا. وهي قراءة الفيلسوف الذي تؤهله كفاءته المعرفيّة من الوقوف على معاني الكتاب الباطنة (ينظر: عبد الفتاح كيليطو، **الحكاية والتأويل**، دراسات في السرد العربيّ، الدّار البيضاء، دار توبقال للنشر، 1988)

فما في كتاب كليلة ودمنة من الحكم والأمثال متدثر بالاستعارات والرّموز مشروط بالإخفاء والكتمان بالمعنيين الحقيقيّ والمجازيّ، سواء المعنى المتمثّل في حفظ الكتب في خزائن الملوك لمنع رواج هذا الأدب وانتشاره بين عموم الناس، أو المعنى المتمثّل في اتخاذ الحيوان قناعا على لسانه تُجرى الحكم. وعلى هذا الأساس تتكاثف الأقنعة والأحجبة تكاثفا يؤكد أنّ شرط وجود الحكمة واستمرارها موصول بإخفائها ومنعها صيانة لها وضنّا بها عن غير أهلها. ففي تأليف هذا الأدب ضرب من ضروب سياسة الكلام لذلك تستوجب قراءته ضربا من ضروب السياسة حتى تهتك الحجب وتزول الأقنعة وينكشف المستور الخفيّ وتفتح الأصداف ليظفر القارئ بكنوز الحكم. وعلى هذا الأساس، يمكن القول إنّ الإخفاء في أدب ابن المقفّع طريقة تفكير ووسيلة تعبير أتاحت لكليلة ودمنة الشيوع والانتشار إذ أقبلت عليه الذائقة مستحسنة إيّاه مستطرفة ما فيه ومعترضة عليه ومعارضة له وأقبل عليه العقل متملّيا يفكّ مغالقه مجتهدا في بلوغ الغرض الرابع المخصوص بالفيلسوف. هو غرض نبّه عليه الكاتب في باب غرض الكتاب ودعا إليه ويبدو أنّه سكت عنه سكوتا ضاعف من منزلة الأسرار في الكتاب وأغرقه في أجواء الكتمان والإخفاء وغذّى عمليّة التقبّل بما تضمّنته الحكايات من صور التّعبير من قبيل الإيحاء الدّالّ والإشارة الخفيفة والكناية والتلويح والرّمز المكثّف والاستعارة التمثيليّة وغيرها من وسائل التلطيف والإبلاغ. ولذلك كلّه صلة بالحيلة التي عليها مدار الكتاب. وكان الإخفاء من حيل الكاتب في تنفيق الكتاب.

22 ابن المقفع، الأدب الكبير والأدب الصغير، ص 31

إلاّ أنّ وصل الأثر بالسياق الذي تنزّل فيه يكشف عن مفارقة غريبة كثيرا ما حذّر ابن المقفع منها ونبّه عليها وخصّص لها في أدبه حكما وأمثالا وعقد لها في كليلة ودمنة الباب الأخير «باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين». وهو باب يدعو إلى وصل العلم بالعمل ويبرز عاقبة من لا ينتفع بعلمه فيرى الرأي لغيره ويعجز عنه لنفسه. تبرز هذه المفارقة عندما يقارن القارئ بين عظمة المشروع الفنّي والفكريّ والسياسيّ الذي أرسى ابن المقفّع دعائمه في سائر ما نقل وألّف وبين سوء المصير الذي انتهى إليه هذا الأديب المفكّر. فقد ذكرت أخبار أنّه انتهى نهاية غامضة، وذهبت روايات كثيرة إلى أنّه قطّع تقطيعا وألقيت أجزاؤه في النّار. صورة من التشفّي والانتقام تبعث على التساؤل عمّا إذا كان لأدبه ولطريقة التّعبير التي اعتمدها تأثير في رسم المصير الذي انتهى إليه.

تُرجع كتب الأخبار والتاريخ السّبب الرئيس لقتل ابن المقفّع إلى طريقة التّعبير التي انتهجها في كتابته نسخة الأمان لعبد الله بن عليّ بعد إخفاقه في الخروج على عمّه المنصور وفشله في دعوة الناس إلى مبايعته وفراره إلى البصرة والتماسه الشفاعة من أخيه سليمان. فممّا جاء في هذه النسخة: «ومتى غدر أمير المؤمنين بعمّه عبد الله بن عليّ فنساؤه طوالق ودوابّه حبس وعبيده أحرار والمسلمون في حلّ من بيعته». فهل يكون مسلك التعبير الصريح السبب الرئيس في قتل ابن المقفّع؟ وهل يجرؤ ابن المقفّع – الأديب السلطاني- على مخاطبة الخليفة أو السلطان بنقيض ما دعا إليه؟ أم كانت هذه الرسالة القادح الأكبر للتخلّص منه وقد كثرت عن سيرته الشكاوى وحامت حول معتقده الشّكوك؟

أيّا يكن الجواب فإنّه لا يمكن استبعاد شيء مهمّ كان له في مصيره تأثير، وهو كثرة ما كتب عن العداوة وسياسة الأعداء ودعوته الصريحة والضمنيّة إلى اغتنام لحظة ضعف العدوّ والإجهاز عليه قبل أن يستقوى فتعسر مواجهته وإلى استئصال العدوّ استئصالا باعتماد سياسة الاختراق والمباغتة وسدّ المنافذ. وإذا أضفنا هذا الموضوع إلى سائر الموضوعات السياسية التي خاض فيها ابن المقفّع استبان خطر الكتاب وقدرته على تنبيه العقول وإيقاظها[23]. إنّه كتاب في سياسة الأعداء.

لاشكّ في أنّ هذا الموضوع قديم متجدّد. ولاشكّ أيضا في أنّ ابن المقفّع قد رسم في باب البوم والغربان أنجع وسائل القضاء على الأعداء. وواقع الإنسان المعاصر شاهد على قدرة الاختراق والمباغتة على تصدّع الأحزاب وتفكّك الدّول التي تعجز عن «تحصين» أسوارها و«حفظ» أسرارها. إنّها حرب الاستعلامات والتجسّس على الدّول تلك التي يكون فيها أمهر الأعداء تجسّسا أقدرهم على إصابة الغرض وأضمنهم للقوّة وأقربهم إلى الانتصار. وفي هذه الحكمة ما يجعل هذا النصّ السردي القديم حديثا يهب العبرة لمن شاء الاعتبار. وفي هذا السّياق يمكن فهم الماضي. و(إنّ الذين لا يذكرون الماضي مكتوب عليهم أن يجرّبوه مرة أخرى/ جورج سانتيانا).

---

23 الشواهد على تأثير الكتاب كثيرة. يُروى في هذا السّياق، أنّ كسرى أنو شروان سار إلى بهرام حتى إذا كان على مقربة منه رأى أن يقدّم إليه رجلا من ثقاته ويأمره بالسير إلى عسكر بهرام، وتسنّى له معرفة ما أراد وانصرف إلى كسرى، فكان مما أخبره به أنّ بهرام إذا نزل المنزل دعا بكتاب كليلة ودمنة فلا يزال منكبّا عليه طوال نهاره، وهنا يتّجه كسرى إلى أخواله قائلا: ما خفت بهرام قطّ كخوفي منه السّاعة حين أُخبرت بإدمانه النّظر في كتاب كليلة ودمنة. ينظر: ليلى حسن سعد الدين، **كليلة ودمنة في الأدب العربيّ**، دراسة مقارنة، دار البشير للنشر والتوزيع عمان الأردن 1989 ص 143

ولكن، على قيمة الإخفاء الفنيّة والفكريّة والخطابيّة والوجوديّة فإنّ التواصل السليم المؤسّس لمتين للعلاقات والمنشئ لجديد الصداقات يقتضي نقاء الطوّية وصفاء السريرة ووضوح القيم التعامليّة واحترام الإنسان في مطلق المكان والزمان. وهذا المطلب لا يتحقّق بأجواء الشكّ والارتياب ولا يتوسّل فيه بضروب المخادعات والمغالطات ولا يقوم على رصد غفلة الآخر ومباغته.

خاتمة:

للمثال الخرافي في كليلة ودمنة قوّة تأثيريّة مخصوصة مرجعها إلى الجنس الأدبي الذي استدعى الأمثال واستقطبها، وإلى نظام تركيب الأمثلة وتوزيعها، وإلى طريقة تطوير المثال ببسط **الكلام، وتكثيف الرمز، والمزاوجة بين السّرد والتعليق.**

من حيث خصائص **الجنس الأدبيّ**: يمكن اعتبار باب البوم والغربان من جنس المشاورة التي انعقد القول فيها على موضوع العداوات وعرضت جملة من الآراء في سياسة الأعداء. فالحدث القادح أوّل الباب (هجوم البوم على الغربان) استوجب اجتماع السلطان والأعوان للبحث في الوضع وإيجاد الحلول لمعضلة الغربان، وهل يكون الحلّ الناجع بالصلح أو بالقتال أو بمفارقة الأوطان. ولكنّ القرار في مثل هذه المسائل خطير، ولذلك يُحفظ القول وتصان الأسرار بانعقاد مجلس سريّ مغلق بين الملك وأحد وزرائه الخمسة لاتخاذ القرار المناسب ورسم الخطّة الناجعة لحلّ معضلة الغربان وضمان بقائهم وإكسابهم قوّة. لذلك كان السؤال عن أصل ابتداء الداء. وكان العقل يبحث في جملة الأسباب والمسببات لإيجاد الحل المجدي معتبرا ثلاثة أشياء هي بمنزلة القيود: أولها إنّه لا سبيل للمرء إلى قتال من لا يقوى عليه ففي ذلك تغرير بالنفس وإهلاك لها، وثانيها إنّ المبذول في الحروب أعظم من المبذول في السّلم لأنّ مدار الأمر فيه على الأنفس والأبدان فضلا عن الأموال، وثالثها إنّ المرء عليه أن يهاب عدوّه ويتّقيه ويحذره ولا يستصغر شأنه. ورابعها أنّ تأدية الخراج إلى العدوّ من شأنه أن يحقن الدماء كما من شأنه أن يغري الأعداء فلا يرضون عند الاسترضاء بل يشطّون في الطلب فيكون المدفوع من الذلّ والهوان أكثر من المدفوع من الأموال. وفي جملة هذه الآراء والردود ما يغري بالخوض في هذا الموضوع. ولا عجب فأكثر جريان الأمثلة الخرافية في الموضوع السياسي. ولعل استقراء الأزمنة التي ألفت فيها حكايات الحيوان يفضي إلى تأكيد الرأي القائل إنّ هذا النوع من القصص والحكايات ينمو في الغالب زمن الإسكات، عندما تُحظر بعض موضوعات القول ويعاقب أصحاب الحقّ والصواب، وعندما يتّخذ السّنان بديلا من اللسان، ويكون التناحر مكان التحاور. وفي استدعاء هذا الموضوع المحظور والخوض فيه ما يضاعف من قوته التأثيرية. ولكنّ الموضوعات المهمة في حدّ ذاتها لا تصنع أدبا جميلا مثيرا، إذ تظلّ مشروطة بإحكام سياسية وحسن تدبير. **وهو ما أبان عنه باب** البوم والغربان وقد اكتسب قوّة مخصوصة مصدرها **استراتيجيات السارد** في تقديم المادة الحدثية.

ومن هذه الاستراتيجيات تأخير الحلّ الناجع وتحصينه وإكسابه بالإخفاء والتحصين قوّة تأثيريّة بالغة. **فالإطار الذي احتضن هذا الرأي كفيل باستثارة النفوس والأذهان وإغرائها لأنّ من سجايا النفوس استطلاع**

الأسرار والميل إلى كلّ خفي ومحتجب. ومن استراتيجيات السرد إظهار الفكرة الواحدة بإيراد المثال والمثال المضادّ: مثل الغربان في احتكامها إلى العقل، ومثل البوم في خضوعها لسلطان الهوى. وقد أفضى ذلك إلى ظهور ثنائيات متقابلة (العقل والهوى، المجالس السرية المغلقة والمجالس التي تجري على العلن، الحذر والاطمئنان، الإخفاء والإفشاء، الحزم وحسن الظنّ، والماء والنار، وضع القول في مواضعه ووضع القول في غير مواضعه... وثنائيات أخرى استتباعا بحكم علاقة المماثلة، من قبيل العرب والفرس، والمفكر والسلطان، والمبدأ الأخلاقي والمبدأ السياسي، والحقيقة والمنفعة. ..

وأهمّ من ذلك جميعه، في نظرنا، طرق الموضوع السياسي باعتماد تقنية المثال والتمثيل، وتأسيس موضوع سياسة الأعداء على مبدأ الإخفاء. فقوّة المثال في باب البوم والغربان من كليلة ودمنة آتية من جهة سياسة الإخفاء. وقوّة الإخفاء في تعدّد صوره ووظائفه، إذ بدا مطلبا فنّيا بفضله استقدم الأمثال واستدعى الرموز واستوجب الأقنعة وكثّف العبارة واتخذ الحيوان بديلا من الإنسان ودليلا عليه، ومنهاجا سلوكيا و**موقفا فكريّا** يرى الإنسان في الحياة أحوج ما يكون إلى الكتمان والمداراة، **ومبدأ وجوديّا** يضمن بقاء الإنسان ويحصّنه من نوازل المكروه، فضلا عن كونه **استراتيجيّة خطابيّة** بها يدرك المرء بالصمت والكتمان ما عزّ بالتصريح إدراكُه، **ومشروعا سياسيا** يرمز إليه مثل الأسود وملك الضفادع، وتوجزه صورة الماء والنار في تفاوت تأثيرهما: سياسة لين تثقب صمّ الصخور وتقطع صلب الرّخام وتنفذ إلى أعماق الأرض وتتغلغل إلى أعماق الأشياء، وسياسة حادّة حارقة لا يجاوز تأثيرها الوجه والسطح والظاهر. والباب بما فيه إجراء لفكرة وإظهار لحكمة بالغة: «**صرعة اللّين والرّفق أسرع وأشدّ استئصالاً للعدو من صرعة المكابرة**» وهي «**أوهن الأعداء كيدا أظهرهم لعداوته**».

بيد أنّ ابن المقفع قد ذهب بالإخفاء أشواطا فرسم ضربا منه لم تتّجه الهمم إليه إلا حديثا وما فتئت البحوث تتناوله بالدّرس والنّظر من جهات عديدة، [24] وهو الضّرب الأكبر من الإخفاء القائم على **محو علامات التأثّر** لئلا تنطق الوجوه بما سكتت عنه الألسنة. وهذا الضّرب يختصّ بالملوك وذوي الشّأن من أصحاب القرار. ويتمثّل في تعطيل علامات التخاطب ومحو أدلّة التأثّر والانفعال. فإذا كان من الطبيعيّ أن تنطق الوجوه والأبدان بما يعتمل في أعماق النفوس والأذهان إمّا اضطرابا أو ارتباكا أو احمرارا أو اصفرارا أو شررا يتطاير أو بكاء يُذرف أو نفسا تنبسط وتنشرح أو عبوسا يزول أو ابتسامة ترتفع ليحلّ محلّها السّخط والغضب، وغيرها من وجوه التأثّر وردّ الفعل التي ترتسم على وجه الإنسان فإنّ (العاقل) يُطلب إليه –إمعانا في الإخفاء- أن يمحو سائر أنواع ردود الفعل والتأثّر لاسيّما إذا كان ملكا ذا حزم وعزم، فإنّه عندئذ يُدعى إلى تعقّل ردود أفعاله وحفظ وقع الكلام عليه. وهذه الفكرة المبذورة في أدب ابن المقفّع قد عاد إليها المفكرون العرب اللاحقون ممّن كتبوا في آداب السلطان وسياسة الرعية ومعاملة الأعداء شرحا وتوضيحا وتنبيها وتأكيدا، يصدرون في ذلك عن اقتناع بأنّ الملك يجب ألاّ يظهر وجهه إمارة سخط ولا رضا ولا يُعرف منه آثار حزن ولا سرور لأنّ مثل هذه العلامات تُظهر ما هو في النفس كامن وتكشف الأسرار وهي مطويّة، وتنبئ بنوع ردود الفعل من خلال درجة التأثير البادية على الوجوه. فأفضل صور الملك وأضمن حالاته أن يكون «كتوم النفس كتوم اللسان، ولا يبدو من نفسه ما يكره أن يظهر على لسانه. وإنّ أسوأ العيوب حالا وأظهرها وبالا أن يُعرف ما في نفسه من غير اختباره فيعلمه الثقة والظّنين ويشترك

24 من قبيل البحث المعاصر في طرائق محو الذاتية في الخطاب. ووصلها بالمسؤولية الفكرية والقانونية الجزائية واللسانية وما يفضي إليه محو الذاتية الخطابية من مكاسب تتيح تلافي المواجهات والصراعات واجتناب الاتهامات ورفع سوء الظنّ، وتستجلب لصاحبها صفة الأمانة الفكرية والخلقية وتستدعي له الاحترام وتطمئن المتلقي إلى صحّة ما يقول ويكتب، غير أنّ هذه البحوث قد بيّنت أنّ محو آثار الذات فعل زائف وقضية مغلوطة وبيّنت أنّ للذات طرائق عديدة للتسلل والاختراق والانتشار، ففي العمل الصحفي مثلا، تكون الذات أكثر حضورا عندما تدعي الغياب، وهو من المفارقات، ففي استدعاء المتكلمين واختيار الموضوعات وترتيبها وفي إخراج البرنامج فضلا عن الاختيارات اللغوية وزايا النظر وسائر وسائل الإبلاغ والتعبير (من وجهة نظر سيماخطابيّة sémio-discursif) في جميع ذلك ما يؤكد حضور الذات ويزيل وهم التجرد والغياب. ينظر مثلا:

- Chagnoux, M. 2009. *«Informer sans s'engager: modélisation de la dynamique énonciative dans les sujets d'actualité «*. Corela, Volume 7, Numéro 1.(http: //edel.univ-poitiers.fr/corela/document.php?id=2116)

- Charaudeau, P. 2005, *Les médias et l'information: L'impossible transparence du discours.*De Boeck – Ina coll. «Médias Recherches», Bruxelles.

- Rabatel A. 2005. «Les postures énonciatives dans la co-construction dialogique des points de vue: coénonciation, surénonciation, sousénonciation», in Bres, J., Haillet, P.-P., Mellet, S., Nolke, H., Rosier, L., (éds.). *Dialogisme, polyphonie: approches linguistiques*, pp. 95-110. Bruxelles: Duculot.

- Alain Rabatel Stratégies d'effacement énonciatif et posture de surénonciation dans le *Dictionnaire philosophique* de Comte-Sponville Langages Année 2004 Volume 38 Numéro 156 pp. 18-33

- Rabatel, La question de la responsabilité dans l'écriture de presse, p7- in Semen 22, *Enonciation et responsabilité dans les médias* , coordonné par alain Rabatel et Andrée Chauvin-Vileno, Presses Universitaires de Franche-Comté 2006

- Rabatel L'effacement de la figure de l'auteur dans la construction événementielle d'un «journal» de compagne électorale et la question de la responsabilité, en l'absence de récit primaire p 77 in Semen 22 *Enonciation et responsabilité dans les médias* , op. cit

- Le Querler, N, *Typologie des modalités*, Caen: Presses Universitaires de Caen. 1996

فيه الخائن والأمين.[25] إنّه تعقّل الانفعال والتحكّم في العواطف الأهواء تحكّما القصد منه محو علامات التأثّر لئلاّ يُعرف نوع التأثير.

غير أنّ معرفة الخفيّ على غير المتمرسين به أمر عسير، والمحصول منه في الغالب لا يجاوز دائرة الترجيح والظنون. والأمر أشكل عند امّحاء علامات التّأثر واختفاء دلائل البيان. ثمّ إنّ لتبادل الأسرار في مثل هذه المجالس والمقامات طرائق وطقوسا وأدلّة يعزّ امتلاك مفاتيحها وفكّ مغالقها، إذ تكون في الغالب بوحي العين أكثر ممّا تكون بالكناية، وتكون بالإشارة دون العبارة، والإيجاز دون الاستطالة، والاستغناء بالقليل عن الكثير، والاكتفاء باليسير من الخطاب من دون تشعيب وتطويل، بل يُطلب إلى أصحاب تلك المجالس أن يرقى إلى مرتبة الفهم بلا إشارة ولا عبارة. وتلك أسمى المراتب وأعلى الدّرجات واقدرها على حفظ الأسرار: فإنّ السرّ إذا استودع إلى اللّبيب حُفظ وحُصّن، والكلام إذا ألقي إلى الفيلسوف تُمثّل معناه وأُدرك مقصده. وعلى هذا الأساس يمكن فهم الغرض الخاصّ بالفيلسوف، ذلك الغرض الذي أخفاه ابن المقفع في مقدمة الكتاب، فإذا الإخفاء إغراء. ولكن هل يقدر المرء على التجرّد من علامات الانفعال وردّ الفعل؟ وهل تنتفي عندئذ دلائل البيان؟ أو ليس (غياب) العلامة علامةً قويّة يشهد غيابها على عمق حضورها وتفوق قوّةُ صمتها بلاغةَ المنطوق؟

25 الماوردي، **كتاب تسهيل الظفر وتعجيل النظر، في أخلاق الملِك وسياسة المُلك**، تحقيق محي هلال السرحان، مراجعة وتقديم حسن الساعاتي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981 ص 89 الفصل الحادي عشر (كتمان السر)

المراجع:

- ابن الأثير، **المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر**، تحقيق محمّد محي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، 1990.

- ابن رشد، **تلخيص الخطابة**، تحقيق وشرح: محمد سليم سالم، الجمهورية العربية المتحدة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة 1967 تصدير محمد أبو الفضل إبراهيم.

- ابن سينا: **الشّفاء، المنطق، الجدل** (6) راجعه وقدّم له د. إبراهيم مدكور، حقّق النّصّ وقوّمه وقدّم له د أحمد فؤاد الأهواني، القاهرة، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، 1965.

- ابن المقفع،

  - **الأدب الكبير**، تحقيق أحمد زكي باشا، الطبعة الأولى، دار ابن حزم بيروت، 1994
  - **الأدب الصغير والأدب الكبير**، تحقيق إنعام فوال، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الثالثة، 1999
  - **كليلة ودمنة**، تحقيق عبد الوهاب عزام، دار الشروق بيروت، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، الطبعة الثانية، 1981
  - **كليلة ودمنة**، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1922
  - **كليلة ودمنة**، المطبعة الأميرية ببولاق القاهرة 1937 باب البوم والغربان ص ص200-231

- فؤاد بن أحمد، **منزلة التمثيل في فلسفة ابن رشد**، طبع في لبنان: منشورات ضفاف، دار الأمان الرباط، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى 2014

- فرج بن رمضان، مكانة المعنى وصفاته في الحكاية المثليّة، **حوليات الجامعة التونسيّة**، ع46 س 2002، ص: 267-311

- كمال بوخريص، السرّ ومحنة الصمت، ضمن المسكوت عنه، **المسكوت عنه**، ندوة قسم العربيّة بكليّة الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، نوفمبر 2010، ص ص 177-195

- التوحيدي، **الإمتاع والمؤانسة**، الليلة السابعة عشرة

- عبد القاهر الجرجاني:

  - **أسرار البلاغة في علم البيان**، دار إحياء العلوم بيروت ط1 س 1992
  - **دلائل الإعجاز**، علق عليه السيد محمد رشيد رضا، طبعة جديدة منقحة ومصححة، دار المعرفة بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1994

- عادل خضر، في القول المسلوب: من (المسكوت عنه) إلى (ما لم يقل بعد)، ضمن **المسكوت عنه**، ندوة قسم العربيّة بكليّة الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، نوفمبر 2010 ص ص 19-32

- موريس دوفريجيه، **مدخل إلى علم السياسة**، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي، دار دمشق، (د ت)

- ليلى حسن سعد الدين، **كليلة ودمنة في الأدب العربيّ**، دراسة مقارنة، دار البشير للنشر والتوزيع عمان الأردن 1989

- بسمة بلحاج رحمومة الشكيلي، هل المسكوت عنه هو ما لايقال؟ ضمن، **المسكوت عنه**، ندوة قسم العربيّة بكليّة الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، نوفمبر 2010، ص ص 61-86

- الفارابي، كتاب في المنطق: **الخطابة**، تحقيق محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976

- محمد القاضي، **تحليل النص السردي**، دار الجنوب للنشر تونس 1997

- القلعي، (الإمام أبو عبدالله بن محمد ت 630 هـ) **تهذيب الرياسة وترتيب السياسة**، تحقيق إبراهيم يوسف مصطفى عجو، مكتبة المنار الأردن، الزرقاء، الطبعة الأولى 1985

- عبد الفتاح كيليطو، **الحكاية والتأويل**، دراسات في السرد العربيّ، الدّار البيضاء، دار توبقال للنشر، 1988

- الماوردي، **كتاب تسهيل الظفر وتعجيل النظر في أخلاق المِلك وسياسة المُلك**، تحقيق محي هلال السرحان، مراجعة وتقديم حسن الساعاتي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981

- Aristote, ***Rhétorique***, Introduction de Michel Meyer, traduction de Charles-Emile Ruelle, Revue par Patricia Vanhemelryck, Commentaires de Benoit Timmermans , Librairie Générale Française, 1991. Livre II chapitre XX, pp: 251-254 (Sur les exemples, leurs variétés, leur emploi, leur opportunité)

- Aristote, ***Rhétorique***, introduction, traduction, notes bibliographie et index par Pierre Chiron, Traduit avec le concours du centre national du livre, Flammarion, 2007

- Aristotle, With an English translation: ***The "Art" of Rhetoric***, by John Henry Freese, London: William Heinemann, New York: G.P. Putnam's Sons

- Aristotle, ***La Rhétorique*** d'Aristote, Traduite en Français avec le texte en regard et suivie de notes philologiques et littéraires par Norbert Bonafous, Paris, A. Durand, libraire, 1856.

- Barthes (Roland), L'ancienne rhétorique, In: **Communications**, 16, 1970, (article pp 172-223.)

- Boudon (Raymond), L'art *de se persuader des idées douteuses, fragiles ou fausses,* Éditions Fayard 1990.

- Chatman (Seymour), Arguments et narrations, in: *L'argumentation*, Colloque de Cérisy, éd. Mardaga, 1991.

- Declercq (Gilles),

  - *Avatars de l'argument ad hominem in,* La Parole polémique, études réunies par Gilles DECLERCQ, Michel MURAT et Jacqueline DANGEL, Paris, Champion, 2003.

  - *L'art d'argumenter*, Éditions Universitaires, 1992.

- Chagnoux, M. 2009. *«Informer sans s'engager: modélisation de la dynamique énonciative dans les sujets d'actualité «.* Corela , Volume 7, Numéro 1.(http: //edel.univ-poitiers.fr/corela/document.php?id=2116)

- Charaudeau, P. 2005, *Les médias et l'information: L'impossible transparence du discours.*De Boeck – Ina coll. «Médias Recherches», Bruxelles.

- Charaudeau (P.). (sous la direction de), *Identités sociales et discursives du sujet parlant*, l'Harmattan ; 2009

- Heuvel (Pierre van Den) *Parole, Mot, Silence: pour une poétique de l'énonciation*, librairie José Corti, 1985

- Le Querler, N, *Typologie des modalités*, Caen: Presses Universitaires de Caen. 1996

- Perelman (C.) et Tyteca (L.O.), *Traité de l'argumentation*, P.U.F., 1958

- Rabatel A. 2005. «Les postures énonciatives dans la co-construction dialogique des points de vue: coénonciation, surénonciation, sousénonciation», in Bres, J., Haillet, P.-P., Mellet, S., Nolke, H., Rosier, L., (éds.). *Dialogisme, polyphonie: approches linguistiques*, pp. 95-110. Bruxelles: Duculot.

- Rabatel (Alain) Stratégies d'effacement énonciatif et posture de surénonciation dans le *Dictionnaire philosophique* de Comte-Sponville Langages Année 2004 Volume 38 Numéro 156 pp. 18-33

- Rabatel, La question de la responsabilité dans l'écriture de presse, - in Semen 22, *Enonciation et responsabilité dans les médias* , coordonné par Alain Rabatel et Andrée Chauvin-Vileno, Presses Universitaires de Franche-Comté 2006

- Rabatel, L'effacement de la figure de l'auteur dans la construction événementielle d'un «journal» de compagne électorale et la question de la responsabilité, en l'absence de récit primaire, in Semen 22 *Enonciation et responsabilité dans les médias*

- Wauthion (M.) et Simon (A.C) ,(édité par), *Politesse et Idéologie: Rencontres de pragmatiques et de rhétorique conversationnelles*, Peeters Louvan-La-Neuve, 2000

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016

All rights reserved © 2016